سيلفي عزاء المختار

هاني السعيد عز الدين

اسم الكتاب : سيلفي عزاء المختار تأليف:

هاني السعيد عز الدين . تدقيق لغوي وتصحيح

:

تنسيق وتعبئة : أماني زيدان .

تصميم الغلاف : رقم اماني زيدان.

الإيداع : ترقيم دولي :

جميع الحقوق محفوظة للناشر وأي اقتباس أو إعادة نشر دون موافقة كتابية يتعرض صاحبه للمساءلة القانونية، أما حقوق الملكية الفكرية والآراء الواردة في الكتاب فهي خاصة بالكاتب فقط لا غير.

إهداء

إلى رغد وديما ومحمد

أيتها الأحلام الممتنعة شكرا على إبقاء

الشغف حيا بداخلنا

الراوي الأول

سمير حداد

صباح صيفي حار، منتصف شهر يوليو 2020، شموس تشرق وأرواح تغرب

استيقظ ت في العاشرة صباحًا، حضر ت كوبًا من النسكافية باللبن، وقطعة شوكولاتة لأكسر صيامي، قبل الذهاب إلى عملي في موقع "شوف" الإلكتروني، فتح ت التلفا ز على أحد البرام ج الإخبارية، قبل أن أحول المؤشر نحو فيلم وثائقي، ولكن حدثت مفاجأة قبل أن أشرع في الانتقا ل لقنا ة أخرى، شاهد ت أحد المشاهد المميزة من فيلم "دروب" أحد أفلامي المفضلة، لكن لماذا وما هي مناسبة عرض مشهد من فيلم كهذا صباحاً في قناة أخبار؟.

وعلم ت بالخبر، وفاة الروائي والمخرج مختار شكري، عن عمر يناهز التاسعة والسبعون، لم يكن ثمة حديث عن أسبا ب أو أعرا ض مرضية، على الأقل في تلك اللحظات التي سرد فيها تاريخه الفني والأدبي في إيجاز وحسرة وآسى.

أعل م أنَّه تجاو ز العقد السابع، وأدر ك جيدًا بحك م عملي واقترابي من دائرت ه أنَّ صحت ه ليست على ما يرام، لكن روحه الحية وقلبه النضر جعلاني استبع د تمامًا إمكانية أن يكون قد شارف الثمانين، أو أن يكون قد وضع قدمًا في القبر، لكنها الحقيقة، وقبت إلى الأبد شم س الأستا ذ.

شكري فايد، صد يق الأستا ذ المقرب والنا قد الفني يت حدث بحرق „ة وأل „م عن الراحل، كيف صعقه الخبر؟ وكيف سيؤلم محبيه ومريديه وما أكثرهم؟، هو ليس ناقدًا ينعي روائيًا لكن ه صد يق حز ين بحق، تجرع الفاجعة ورا ´ح يرويها بصدم „ة، غي ر مصدق.

نتاول ت الإفط ´ار على „عجل، وارتدي ت ملابسي وذهب ت للموقع، سيكون أمامنا عمل كبير الليلة وفي الأيام المقبلة، ملف مختار شكري، بحر مليء بالأسرار والشع اب المرجانية والقروش وأكثر من عروس بحر، عليك أن تبح ´ث في ه بحذر„ ودق „ة وتمهل، ولن تفوتك المتعة.

علاقتي بالمختار تختل ف عن أي زميل آخر في الموقع، خطيبتي (شيرين) مثلت معه في أكث ´ر من عم „ل، وتنبأ لها بالنجاح وراهن على موهبتها، وهي لم تقل شيئًا سلبيًا عنه يومًا، على الأقل حتى شرع ت في كتابة هذه السطور.

أنا قابلت ه في منزل ه عدة مرات، ضمن مجموعة من الأصدقا ء، تعرفت عليه عن قرب، ودود بشوش، ذو ابتسامة صارخة حية، وهنت في الأيام الأخيرة، احتد طبعه وضاق خلقه، وانقشع لونه الأبيض بفعل شيء ما، يقولو ´ن المرض، وغيا ´ب أبناؤ ه ْعن حيات ه وبلد ه، زوجت ه التي ضي ْقت علي ه رحابًا واسعةً، ه ْل هي التي أنه ْت الرواي ة الكوميدي ة بطعن ة غدر„؟

يومها، كا ´ن مو عد ذهابي لل عمل في الواحد ة ظهرًا، متأخرًا ساعتي ن عن موعدي المعتاد لأننا سهرنا في اليوم السابق حتى منت صف الليل وكا ´ن سيكو ن مرهقًا ْأن ن ´أتي في الثامن ة صباحا كالمعتا د، لكني اكتش ْفت حي ´ن قم ت بإعاد ة فت „ح هاتف „ي أ ´ن مديري، الأستا ذ عز ْت حاو ´ل الاتصا ل بي مرارًا.

سيكو ن علي „عمل ك „بير، يوم شا ق ومر هق وحزي ن، لكني مصدر„ مه „م للأخبار يج ب أ ْن يستنزف ه الموق ع لآخر قطرةً ، م ْن خطيبتي لذكرياتي حي ن قابلت ه لشكري فايد، الذي أتي قن ’أن ’أحد زملائي ْقد حا وره ق ’بل وصولي للموق ع.

وعلينا البحث عن ملامح جديدة،features، عن الأستاذ، حياته الشخصية التي لا يعرفها أحد، إنه نجم حقيقي لا مجال للوصول إليه، إلا بالتنقيب طويل الأمد، علينا أن نبدع محتوى استثنائيًا يخصنا نحن فقط، بعيداً عن التصريحات وتفاصيل الساعات الأخيرة والتغطية التقليدية.

استمر العمل حتى العاشرة، حين بدأت الأنفاس المنهكة تزفر والعقول المشحوذة تنفذ، حينها راودني سؤال عن فكرة لم تخطر بقلب عاشق للمختار، ما الذي حوله في الأيام الأخيرة، لماذا لم تطبق جفونه سعيدة؟ وأغمضت على عكس الحال الذي عاشته.

هنا قرر ت البحث في أيام المختار الأخيرة، تحقيق عن سر هذا التحول الذي طرأ عليه، لن يقدر أحد على رسم ه أفضل مني، شيرين ستفتح لي الأبواب الموصدة، هي نفسها ستكون مصدرًا مهمًا، لقد عاشت في كنفه ورأت تقلب أحوال ه ون َبهتني قبل أي أحد أنه تبدَّل عما كان عليه.

شيرين كانت قد خرجت فجأة من مشروع فيلمه الأخير، رغم إنها قد بدأت التصوير بالفعل لكنها شعرت بقلق شديد وكان عليها أن تسافر بلدتها رأس البر لتطمئن على حماتي المستقبلية التي تعاني من مرض عضال.

لم تخش الشروط المكتوبة في العقد، رغم ما نما إلى علمي، بأن المختار لم يكن يبرم شروطاً على ممثلي ه ويمن حهم الحق في الرحيل إذا ما شعروا برغبتهم في ذلك، هذا اتفاق إنساني ضمني، كان يفرض ه الراحل على المنتجين.

أخبرتني بأنها تختلف معه في بعض الرؤى ولا توافق على كل تعديلاته، بالإضافة لعدم نقبلها نوعية السيناريوهات التي تخطها زوجته رغم إنها عملت في إثنين منها، لكن ذلك جاء في مرحلة البحث عن الفرصة الأولى للولوج، أما وإن انبلجت داخل المنظومة فلها الحق أن تغير السياسة.

لكن شيرين لم يكن لديها أي معلومة أنهل منها عن المختار على الصعيد الإنساني أكثر مما أدركه، لكنها حددت لي مصادر اعتمد عليها وزودتني بأرقام الهواتف التي تنقصني وعرضت التوسط ولم يسعني منها أكثر من ذلك وهو يكفي.

لم يكن قبول الحقيقة يسيرًا على من أحب وه، أن يعلن عن وفاة مختار "المخاتير" كما لقبوه أحباءه وأصدقاءه، ا سم اشتق من أغنية فيروز الشهيرة، التي أحبها، أحب النساء والعطر، وعشق الطعام وأبدع فيه أيضًا، طهى وخلق جمهورًا لأطباق ه الشهية، أطلق النكات، أحب الأفكار المجنونة القادمة من الواقع ولكنها غير مرتبطة بالمنطق، مثل الحياة نفسها.

ولكنه كما وصف نفسه هوى قبل أي شيء رسم القلوب من الداخل، براعة لا يقدر عليها غيره ولا يضاهيه فيها أحد، حتى هؤلاء الذين فاقوه في

عدد الروايات أو الأفلام، من جنوا أرباحاً فاقته مئات المرات لم يشعروا بهذه الحفاوة وهذا الحب، لأنهم لم يتمرسوا مثله الرسم الداخلي.

حين سرت في ذلك الدرب، كان علي البحث في ممر ضيق، حاراته متشعبة، وطريقه غير موجود على الـGBS، هؤلاء المطالب بالبحث معهم عن حقيقة
آخر سنواته، لم يكونوا سيرضون أن تخرج إلا مثالية بالرسم القديم، التي
عرفه به الجميع وعاشوا عليه، وأحبوه من أجله وارتبطوا به من خلاله وغيروا حيواتهم بسببه، ومن أجل ذلك كتب علينا أن من أراد الحقيقة فعليه سؤال الخبيث قبل الطيب، والصريح قبل المتحفظ.

البشوش السعيد المبتهج، صاحب الروح الطفولية الحاضرة، لم تكن
تجربته في رأي مريديه مجالًا للتنقيب أو البحث عن شيء كئيب وسلبي
وربطه به، ربما خافوا من أنهم أصدقاء الأيام الأخيرة يلامون أو يتهمون بأنهم من أبكى السعادة وعجز الطفولة، أن يكون جمهوره وعشاقه هم من قتلوه، ولكني قررت أن أسي
ر في هذا الدرب الموحش، ليصمتوا أو يتحدثوا، أريد أن
أصل إلى مبتغاي، ولكن هل أعرف؟

الزوجة الأخيرة في حياة عاشق النساء الراحل، هي مفتاح مهم، كون النساء
دوماً ما كانت كذلك في أعماله، دافع عنهن في كتاباته، وتزوجهن وتركهن، وراهن عليهن، لكن الرهان الأخير لم يكن فائزًا أو هكذا قالوا، لم أسمعه
يتحدث عنها بالسلب أبدًا.

لكنهم أكدوا أن تلك هي التي حولت الباسم إلى عابث، امتحقت فرحته، الكاتبة الناشئة والناجحة، ماهيتاب أمير، كان هذا تفسير كثيرين، لربما

يكون به من الصواب شئ، لربما لا.

التحقيق في الحيوات الشخصية للبشر وتحليلها للبحث عن متهم وضحية أمر غاية في السذاجة والخبث والغباء، لن ألعب هذه اللعبة، سأبحث عن الحقيقة كما هي بصدق.

حاولت مراسلة ماهيتاب، عن طريق محمود الشماع، مساعدًا وصديق وتلميذ المختار الأول في أيامه الأخيرة، كانا زميلين في ورش الأستاذ وحضرا معاً جلسات وعروض خاصة وأفلاماً لمختار وتعرفا عليه عن قرب، حتى أبتعد عن الجميع إلا هما.

بيد أنها تجاهلت طلبه، ولم تهتم، القصة تبدو حساسة بالنسبة إليها بالطبع، أمرًا شخصيًا نسائيًا، هذا حق بشري، آلا يكتب أحد شيئاً لا تريد عن حياتك، مهما قال القانونيين عن الشخصيات العامة وحق الجمهور النبش في رفات مشاعرهم.

أشيع فيما أشيع، أن محمود أح ´ب ماهيتاب بل وأنها بادلته مشاعر صادقة، تحولت إلى كاذبة حين دخل الأستاذ إلى الصراع أو حين قررت الحسناء الثلاثينية أن تفوز به، ولكنها قصة بليدة وغير متفق عليها.

طلبت من محمود إجراء حوار معه عن علاقته بمختار في الأيام الأخيرة، ما الذي حدث له؟، لماذا أصبح باهتاً حتى في أفلامه وكتاباته، كيف راحت البسمة التي أغرقت محياه لسنوات، كان مقتضباً لكنه أقسم أنه لن يكذب.

محمود شخص صادق، وهذا أمر نادر، هو كاتب سيناريو ورواية، والراوي يميل للكذب أحيانًا، ويتمتع بالخبث والمكر، أو على الأقل يميل إلى وضع لمسته الخاصة، لا يكترث بالحقيقة دومًا، لكن هل هذا في الحياة مثلما الوضع عند كتابة القصص، لربما كان محمود استثناء، حين قررت محاورته تمنيت لو أنه الصادق الذي سيغنيني عن كاذبين كثر.

ولكن أيضاً عليك في تلك الرحلة أن تحا ´ور خبيثًا، ملقاط، كما يلقبونه، حرباء سامة يدعى نائل عيسى، ربما كان سبب رئيسي في نكبات الأستاذ الصحية الأخيرة والسخرية منه، صديق مقرب قديم من محمود وأنجح كتاب جيله الآن، درس الإخراج في معهد السينما، بعد فراغه من كلية الحقوق، وتحول لمركز الصدارة، شخص ناجح وجذاب لوسائل الإعلام والصحافة، بتعبيراته الذكية والمستفزة والمثيرة للاهتمام وردود الأفعال المسجاة على سطح الترينـد، لديه لمسة خاصة لكن يعاب عليه أن شخصياته تتلون بالخبث، ويقال إنه يرسم نفسه فيها مثل أي كاتب.

وبالطبع ستأتي مرحلة ماهيتاب، ولكن هل ستصدقني القول، لا تنتظر صدقًا من امرأة، هذا لو قررت من الأساس أن تفتح قلبها إليك، ما الذي يجبرها، ربما يبعث الله مصدر آخر، ربما تعود الحياة للأستاذ نفسه بعد المنية!

تكذب النساء لأنهن يخفين الحقيقة ويخشونها، الصدق يجرحهن ويخلع نقاب صراحة هن لا يتحملن إياها، وغير مطالبات أيضا بالمثابرة، وأحيانًا يكذب البشر جميعًا منعا للتطفل.

الخروج خالي الوفاض

حاورت محمود، شخص غامض يصمت كثيرًا، لا تفارق الابتسامة النقية وجهه لكنها بها من الوجوم والغموض ما ينبئ بالكثير خلفها، صديق لا تعرف عنه الكثير يستمع إليك وينصت جيدًا ويمنحك النصيحة السديدة دون مجاملة أو مداورة أو تقمص لدور الواعظ.

قد أحب محمود المختار منذ اللحظة الأولى التي التقيا فيها، يرجع هذا إلى أنه قبل أن يعرفه فنياً أدرك روحه وشخصيته، لا بد أنه انبهر به أكثر مما يلزم، وبقي داخل دائرته إلى ما قبل الموت بوقت قليل، خرج من فراجته بحكم الطموح، لا يلوح في الآفاق سبب آخر حتى الآن.

حاولت في حواري مع محمود أن أسأله عن طبيعة معرفته بالأستاذ وكيف رآه منذ اليوم الأول لليوم الأخير، ولماذا انفصل عنه قبل وفاته، وهل ثمة شيء مريب حدث في علاقتهما، نفس الأسئلة التي أشيعت وتواترت، خاصة أنه كان يتحدث عن تلك العلاقة بفتور ونفي مقتضب لوجود أزمة.

لم أتوقع إلا النذر اليسير، وكنت على صواب، ربما لم يكن يدرك السر لكن معه جزء كبير من مفاتيح الأسرار كلها.

كيف بدأت علاقة محمود بمختار؟، كان هذا سؤالي الأول له، توقعت أن تكون الإجابة، في ندوة في مقابلة بالجامعة، في حوار صحفي داخل منزله، زيارة للجامعة، أشياء من هذا القبيل، العلاقة الشخصية بدأت بندوة في الجامعة بالفعل، ولكن الارتباط والهوس ظهرا قبلها بقلب عاشق عادي أحب روح الأستاذ.

يقول محمود:

- كنت طالبًا في جامعة حلوان، قدمت لتوي من المنصورة للدراسة بالعاصمة، كنت أعشق القراءة وقرأت له القليل، كانت أفلامه أمتع من رواياته، أو كان يصي ´غها بصورة أصدق، أو ربما لم يكن له هالة وألق الكاتب مثلما امتلك أمام جمهور السينما.

أحببت أفلامه قبل أن أعرفه، كانت ليلة في منتصف سبتمبر، هواءها رطب، أيام الشهر الأولى، والنفقة الشهرية لا تزال الدماء تجري في وجهها النضر، قبل أن يقتلها الذبول وتقل طراوتها، وتهترىء أطرافها.

تناولت أنا وزميلي نائل عيسى، كباب وكفتة ومشروب غازي أسود ممتع، وأكملنا الرباعية القاتمة الخالدة بسجائر ماركة "مارلوبورو"، قلت لك في بداية الشهر، قبل أن تتحول إلى كليوباترا.

نائل اختلف معي في أشياء كثيرة، طريقة تناول الأشخاص وقراءتها في الكتابة وفلسفة قراءة وتحريك الشخصيات، ضعف البشر، كيف يستغله وكيف أتعاطف أنا معه، ولكنه أول من عرفني على مختار، قال لي وهو يشاهد فيلم "الطريق للمستحيل" : "هذا كاتب ومخرج عبقري".. استمتع بهذا الفيلم".. كانت هذه البداية.

حين أتحدث عن مختار، يجب أن أتحدث عن نائل أولًا، لقد حببني في فكرة الكتابة من الأساس، قراءة الأشخاص، إنها أحد مناقبه التي لا أنكرها عليه، ولكن القراءة تختلف من شخص لآخر، بناء على بحر من الخلفيات المختلفة وتاريخه مع بني البشر.

ذهبت مع نائل في إحدى المرات لإصلاح تلفزيون قديم كان بالشقة التي قمنا باستئجارها، الحرفي مثل أقرانه من هؤلاء المولعين بالإطراء على أنفسهم، كان يحتاج شيء من التمجيد منحه إياه نائل دون أن يطلبه، أو لربما طلبه ضمنياً، عرفت وقتها كيف كان يقرأ مساوئ البشر ويلعب عليها ويفوز.

تعجبت كيف لشخص بنرجسية وصلف نائل، يترك الفرصة لشخص متواضع عامل ضعيف القدر والمقام، في عقلية صديقي، يتباسط معه هكذا.

روى لي يومها، ومن يومه عاشقًا مغرمًا بالسرد، العديد من القصص التي قرأها في مكتبة والده العتيقة عن فن معاملة الحرفيين.

روى لي نائل الكثير من القصص عن اللَّوع البشري وكيفية الخداع وبناء السمعة وكسب أصحاب المهن والتجار بالحيلة والدهاء، وهي معا „ن أترجمها في قاموسي إلى الكذب والخداع والخبث.

من بين القصص التي أتذكرها قصة عن الشاعر المتنبي في أيام الصبى، وقت أن سألوه عن سبب بخله، فلم ينكر وأجابهم أن سببه موقف حدث في الصبى، أراد شراء بطيخ باكورة من أحد التجار الحاذقين الخبثاء، في أسواق بغداد، رفض أن يبتاعه البطيخ بخمسة دراهم وقال له مهيناً : "هذا ليس من أكلك"، أي هذا لا يليق بأمثالك.

وحين مر عليه رج ل من شيوخ التجار وثب وانتفض ودعاه وباع البطيخ له بنصف الثمن، والشيخ يهينه وهو يتودد إليه، حتى حمل إليه البطيخ إلى منزله.

وحين سأله المتنبي عن سر هذا التناقض العجيب وغير المفهوم أجابه بأن هذا الشيخ يملك ألف دينار، ومن ثم فهو يتودد إليه طمعاً فيما يسمعه، هذا عن دناءة التجار.

وماذا كان يريد أن يفهمك من تلك القصة؟

الأمر غير متعلق بالتجار أو أصحاب الحرف الخاصة فقط، إن نائل يطبق هذا الأمر مع البشر أيضاً، يقرأ دونيتهم ويلعب عليها، بالكذب، كلنا به نصفًا
ونصفًا، أبيض وأسود، أنا أرى الجمال في إخراج الأبيض وهو يرى العكس
وأنا أتقيء مما يفعل وهو يشعر بالجنون مني بسبب طريقتي في قراءة
البشر، كلًا له شيء من الصواب في رأيه وبعض من الخطأ لكننا نبقى
أصدقاء في النهاية.

يقولون إن نجاعة التجار تبنى على السمعة؟

أعلم بالطبع، وربما أتفهم هذا التصرف بناء على هذا المنطق، لكن لو جئت
لتسألني هل هذا منطق فطري سليم يتقبله القبل، ستكون إجابتي هي
الرفض التام وعدم الاقتناع أو الحاجة للاقتداء به، مواقف وأفكار مثل هذه تسببت في تشككي فيه وبدأت رحلة من عدم القناعة بروحه داخلي.

خلال إجازة صيفية قصيرة في الإسكندرية، كنا في العشرين من عمرنا، أو أقل لا أتذكر، تحدث مع فتاة، سيدة أو امرأة لم أدرك ولا أتذكر، بصورة متعجرفة،

كنا نبتاع سجائر ويبدو أنها دهشت لصغر سننا، كنا نبدو أصغر من أقران آخرين لنا، نظرت له بشكل مريب، انفجر فيها، توقعت أن تدخل معه في اشتباك لكنها نظرت إليه بإنبهار، أو لربما إعجاب،ـ لم أفهم لماذا؟، هل يحب الناس هؤلاء الذين يبهرونهم حتى لو بالخطأ؟.. ثمة نوع من البشر يعشق معذبيه!.

كان جذابًا وكذابًا في آ „ن واحد، مع صديقات الجامعة، وحريصاً على صنع العلاقات مع جميع أصناف البشر، ولديه ثقة استثنائية لا تتراجع أبداً، بل تزيد يوماً تلو آخر، أصنفه برجماتيًا ذكيًا، لكن ذكاءه جعلني أكرهه.

يمتلك نائل القدرة على خطف الأنظار، الاهتمام، التحديق، الإدهاش، إثارة الجدل، نعم يتمتع بالنوع السلبي من الذكاء، ذكاء لا أفهمه ولا أحاول ولا أحب، بمعنى أصح لا يسدي إلى حقيقة، ومن ثم لا أضعه في خانة الذكاء، أرى الكذب والتضليل أقبح أعمال العقل.

أبهرني بآرائه، الانبهار مر عب جهل مطبق، إياك أن تنبهر بأحد ستصدقه على طول الخط، ثم تقع في ورطة حين تفهم أنه قابل للكذب وعدم الإقناع، قبلها سيستخف بك إن أطعته، وستغرق في بحر من الأكاذيب، كنت ضحية لكني تعلمت الكثير، ببساطة تناولت المصل.

حين حضر مختار إلى الجامعة لإلقاء ندوة توقعت أن نائل سيكون أول الحاضرين لكنه لم يحب، تعجبت خاصة أنه من عرفني عليه، لكنه جزء من مزاجه المتقلب، المتع لا تدوم، والذوق يتلون في لمح البصر. وفضل نائل أن يعرف مني ما الذي سيحدث في الندوة، وقتها فتر اهتمامه بالأستاذ،

اهتماماته آنذاك مالت في اتجاه العلاقات النسائية، وبعض الجلسات السياسية، لم يكن ثورياً، كان ناقماً، صداقات وطيدة، أو هكذا تبدو، هل كان ينوي وقتها أن يصبح فناناً؟، كان لا يزال يدرس القانون، لكني شعرت أنه قناعته بالمختار لم تكن قوية.

أما مختار فمنذ اللحظة الأولى خطفني، منحني إبهارًا أكثر مما شاهدته وقرأته من كتاباته، منذ الإطلالة الأولى، ببنطال أزرق جينز بسيط وقميص أبيض، بأكمام غير مكتملة، مفتوح من مطلعه، ضحكات وابتسامات ساخرة، جسد مكتنز لا يثير الغضاضة أو الاشمئزاز، وحين يحكي تدلف إلى الجنة، تتبهر بما يقول، ما قاله يومها قصة رويتها لنائل، ورواها نائل له بشكل مؤلم في يوم من أيامه الأخيرة. عن

ماذا؟

أفضل أن تسأل نائل نفسه، لكني لا أحب أن أرويها، ولكن رأيي الشخصي ليس له أن يؤثر عليك في النهاية أنت تقوم بعملك بالشكل الذي تراه مناسبًا.

هل لك أن تحدثني عما جرى يومها؟ ومن الأفضل أن تكون تلك القصة ضمن ما ستقول؟ - أضفتها ضاحكاً وابتسم هو على مضض مانحني الرفض دون أن ينبس.

صدقني، في هذا اليوم الغريب، كنت مبهورًا والوحيد من بين زملائي الذي اهتم بالحدث بهذا الشكل، كلهم ذهبوا في وسط الندوة لحضور محاضرة في مادة "الصوتيات" لكني أكملت وأكمل معي كثيرين، من عشاقه، لكنهم لم

يكونوا من زملائي، أغلب الظن كانوا من قسم المسرح، حيث من نظم الندوة ممثل يدعى عزمي لاشين، كان أستاذًا في القسم وصديق للمختار ظهر كثيراً في أفلامه، أظنك تعرف.

- بالطبع، أستاذ كبير.

المختار، كما أحببت أن أناديه، من تلك النوعية التي تصنع جماهيرها ليس بأعمالها فحسب ولكن بشخصيتها الإنسانية، والتجربة الأولى لي معه كانت تلك الندوة، حدثنا عن بداياته وصعوبات الأيام الأولى في العمل، لكل عصر صعوبات وعوائق، كان قديراً ولم يكن قوياً كما تخيلته من كتاباته.

- ماذا تعني بأنه كان قديراً؟

نعم، لم يكن يخطط لمستقبله أو أعماله، لو حدث ذلك لزادت للضعف على الأقل، استمتع بحياته بالشكل الذي راق له، حتى في عمله نهل من المتعة حتى ارتوى ومات غارقاً فيها ومتخماً بملذاتها.

ما أتذكره أن الحكاية كانت عن النساء، كان يعشقهن، يراهن المتعة الأكبر في الوجود، إلى جانب الطعام الذي كان يعشقه، ولكن هذه المرة حدثنا عن رجل من أصدقاءه نتاقش معه عن فكرة الزوجة الثانية.

_ كانت زيجاته متعددة أليس كذلك؟

نعم لقد تزوج 4 مرات، وهي معلومة على قارعة الطريق يعلمها الجميع، كما حدثني فيما بعد كان هو في كل مرة من يريد إنهاء العلاقة، لكن العلاقة

توقفت في كل مرة من الطرف الآخر، يبدو دوماً كضحية ومتهم، لا يستحق ما جرى له لكنه لم يكن بريئاً تماماً أيضاً.

- وماذا عن الزوجة الثانية؟

أشعل محمود سيجارة وزفر دخانها وهو يبتسم: باغته أحد الصحفيين الذي كانت له به سابق علاقة به بسؤال عن رأيه في فكرة الزوجة الثانية، لا أدري هل سأله ليثير الضجة وحسب، أم لمجرد ممازحته، أم ليستمع إلى حكيه المبهج المسلي أيما كانت الكلمات التي يقولها، لو كنت مكانه كنت سأفعل الاختيار الثالث.

أما ما قاله فكان كالتالي:

"في إحدى المرات كنت في حفل زواج ابن أحد أصدقائي القدامى، سنه أقل من والده بأربعة عقود على الأقل، يبدو كحفيده وليس نجله، ثم علق صديقي الذي كان معي "إنه إذن هذا ابن زواج المتعة".

رد مختار ساخرًا:

- أو لم يتزوج الأولى أيضًا من اجل الاستمتاع أم كي يستقر وينشئ أسرة ويدخل الجنة ويرضي والديه اللذين استدانا للقريب والبعيد كي يزوجاه، أم لأنها كانت قصة حب من الطراز الرفيع.. المتعة حق أيضًا للكبير والصغير، زيجات الحب لا تحدث إلا نادرًا.

صديقه: ربما متعة الشباب تتمتع بالمنطق والقبول عن زيجة من هذا النوع سن أصغر، وشيء غير طبيعي.

المختار: مقبولة اجتماعيا لكن ليس إنسانيًا، لن يدخل أحدهم أغوارك ليعرف ما الذي يمتعك، الذي يبهجك كلمة حب، طعام، أي شيء من التقدير بكل أنواعه، ليس من حقك أن تقول لي كيف تستمتع بحياتك ومتى وبأي شيء ومن كم لكم.

أحد الأصدقاء بالندوة دخل في الحوار، على الأكثر اعتقد أنه صحفي هلل:

- هل هذا دفاع رجل تزوج ٥ مرات؟

المختار ضاحكاً: 3 فقط يا ظالم وانفرجت القاعة في الضحك.

- ألم تقل لي إنه 4 زيجات؟.

كان هذا قبل أن أعرفه وأن تعرفه ماهيتاب، لقد كنت من أوصلها بها، أنا الذي ألقيت به إلى حتفه (أخرجها ضاحكاً وهو يتأمل ويضع سيجارته في المرمدة بعد فراغه منها).

آمن المختار بأن نظرات المجتمع المرفوضة والأحكام المبيتة، لا تغني عن الحق شيئاً بل أنها يجب أن تحلل وتحارب ومنها هذه الفكرة، رفض تحليل أفكار أو محاربة مواقف لم يعشها، وللآسف عاش تجارب أشد مما توقع في قسوتها.

- بماذا تقصد؟

هو روى لي ذلك لا أدري أكانت تجارب زواج أم عمل أم أي شيء آخر، في مجال الكتابة والعمل الصحفي أو حتى السينما، لا تكون الأمور دوماً سهلة،

لا يتاح بشكل يسير أن تكتب وتصنع ما تحب طوال الوقت، هذا إن أتيح لك الولوج للمجال من الأساس.

- وفي الحياة الدنيا أصعب كثيراً أليس كذلك؟

بالطبع (ابتسم من جديد ثم أغلق صفحته في وجهي)

لكن لا تحاول أن تأخذ مني ردود عن أشياء لا أعلمها، لن أكون مفيدًا لك ولن تخرج مني بشيء، بالعكس ستهدر وقتك؟

- لكنك كنت صديقه الأقرب؟

في بعض المواقف لا يمكنك حتى لأصدقاءك أن تكشف كل ما يدور في قلبك، وما يختلج في روحك، أحسبه كان هكذا في أيامه الأخيرة، ولا تسألني ما الذي هدأ من حيويته وأطفىء شعلته، ربما المرض.. أما حياته الشخصية فهي له وربما القدر، ربما ظلم شخص يوماً ما فردها إليه وانتقم منه.

- ماذا قال المختار غير ذلك في تلك الندوة؟

حدثنا يومها، عن الصدفة كيف حين قرر أن يصنع أول أفلامه جاء له عرض من أحد الأصدقاء، رفضه كان يمتلك مطعماً في باريس، لكن دراسته واستمتاعه بالسينما والأدب كانا مبهورين لكل من عرفه، ووقتها قرر أن يعود وهي قصة قديمة رواها كثيراً، لكن ما جذبني فيها هو الصدفة.

لم يكن مختار من الأقوياء القادرين على صنع كل شيء، بل كان من المستمتعين بالحياة وهناك اختلاف كبير، أنا من مدرسته، لا أنكر ولا أحب أن أحول صوب اتجاه آخر، من أجل نجاح أكبر.

ولكنه كان يختار شخصيات قوية في أعماله أبطاله لم يعرفوا الضعف؟

ربما ولكنه عرفه، كما قلت كان يطلق على نفسه اسم "المستمتع" وأن تكون مستمتعًا بما تعمل حتى اللحظة الأخيرة يعني أنك ستخسر الكثير، جمهور، أموال، مصالح، شهرة، ستتعامل فقط بالصدق، كذلك كان مراوغاً

لكن المراوغات لا تلبس أن تصبح مكشوفة بعد وقت قليل ومن ثم يتم البحث عن أساليب جديدة.

- هل شعرت بالخسارة أمامه؟

ربما لو قررت أن أصارعه سأخسر ولكني لم أدخل معه يومًا هذه الحرب ولا أحب - أنا من فئة المستمتعين وليس المحاربين.

- هل لك أن تخبرني كيف كان انطباعاتك يومها؟، مع من تحدثت وكيف حللت شخصيته لأول مرة؟، كيف رأيته من داخلك؟، هل أبهرك؟ وكيف؟

من داخلي أحببت كل ما يقول، ولا أنكر، لقد أبهرني حقاً، ولما لا؟، من الشخصيات النادرة التي وجدتها تتحدث بعفوية دون وضع ضوابط لرسم شخصيته بصورة مثالية كالمعلمين وأساتذة الجامعة، الآباء والأمهات، الأخوال والأعمام، الأساتذة، كان ساحر ومن السحر ما قتل(قالها بشرود وذهول وشيء من الندم لم أفهمه).

ذكرني يومها بأحد أصدقاء أبي، شخصًا مترهلًا خفيف الظل على سجيته، انطباعي عنه رسمه الانبهار، هذا عيب كما قلت لك، رفضت ما قاله نائل

عنه، ما أثار غضبي أن نائل هو من عرفني عليه لأول مرة لكنه لم يقرأه يوماً بحب أو ربما كان إعجاب سطحي بأمور بسيطة بعيدة كل البعد عن شخصيته الحقيقة، هما متعارضان إلى أقصى حد، لكنهما جاذبان.

نائل يومها حدثني تفصيليًا عن قصصه النسائية كلها، الزيجات الصداقات، ممثلة حسناء شقراء، كنا نحلم بيوم معها ونحن في مراهقة العقد الثاني، كنا نحسده عليها، ممثلة شهيرة لم أكن أعرف إنها تزوجها، دهشت للغاية ما الذي جذبه فيها كي يرتبط بها، لم تكن نجمة لامعة، لكنه من تلك النوعية التي تكفيها الأنوثة.

نائل كما رويت لك، زميلي الذي كان صديقي وقتها، حرصت على أن أروي له كل ما شاهدته، لكن هل كان يؤمن بما يقول المختار، بالطبع لا، لكني أدين لهذا ليوم لأنه كشف لي عن طبيعة ازدواجية الصديق القديم، هاجمه بشكل غير منطقي وكأنه يعرفه شخصياً، كانت له هواية، لم أكن أعلم إنها ستتحول لحرفة لاحقاً، سرقة الأفكار وكتابتها على مزاجه الخاص.

بالفعل حدثت أزمة بينكما في أكثر من رواية، دومًا نتهمه والمختار أيضاً بأنه يسرق أفكاركما ثم يحقق بها نجاحات أكبر.. أليس كذلك؟

لا أريد الحديث عن هذا الأمر في الوقت الحالي، لم أكن متبحرًا في القانون مثله، هل تريد مني أيام معلومات أخرى عن الأستاذ مختار؟

- بالطبع أنت لم تتحدث إلا عن أول مقابلة، وأنت عملت معه لأكثر من عشر سنوات، أعتقد أن عليك أن تروي الكثير، لا تتهرب.

أعتقد أن حديثي المقارن عن النجاحات المسروقة وتفوق نائل عليه وعلي أستاذه كانت موجعة، بالنسبة للراحل فلقد حقق الكثير، لكن محمود لم يصل لمرتبة أستاذه أو يقدر على مناطحة زميله، بعد أن انفصل عن الأستاذ في السنوات الأخيرة.

اعتقد أنك لم تمنحني كل شيء؟.. كن صادقًا

صدقني هناك كثير من الأشخاص الآخرين يمكنك أن تسألهم، النساء تعرف أكثر وأنت تعلم جيداً، وأنت تسألني عن معشوقهن الذي أحبهن وأحبوه.

- كيف توطدت العلاقة الإنسانية بينكما؟
- لكني لا أتحدث عن علاقاتي الشخصية، ولا يحق لي البوح بأسرار غيري، لكنها علاقة طيبة.

أما هذا السؤال فكان إشارة غضبه الثانية مني وتبريره المباشر الصامت لعدم استكمال الحوار، أو حتى تأجيل الحوار أو التهرب منه، لكني تيقنت أن ثمة أشياء كثيرة داخله ربما تكون مفتاح كل شيء لم يتاح لي كشف كنهها.

انتهت جلستي مع محمود، هل كان يكذب؟، ربما، من الأوقع أن نقول يواري عني بعض الحقائق، هذا حقه وهذا صديقه، رغم علامات الاستفهام التي وضعت حول علاقتهما في الأيام الأخيرة، ربما هناك أشياء لا يعرفها، الأصدقاء لا يحبون التعري أمام بعضهم البعض، والراحل الذي يبحث عن

الحقيقة في كتبه، لا يحب أن يرى أحد حقيقته، إلا ولو قرر هو سحب الستار وإشعال الأضواء.

محمود شخص بسيط طيب، كاتب صادق، كما كان يصفه المختار الراحل، لكن الصدق لا يصنع فناً جيداً، لا بد من بعض الحبكة والخيال والمداورة والالتفاف والانحناء والاعوجاج، هل يمارس هذا الجرم معي؟.

ماهيتاب، الزوجة التي يفترض أن تكون مكلومة، أم نائل الذي يصوره معسكر محمود وأستاذه بالشرير، هذا لو افترضنا أنهما يلعبان في نفس الفريق.

إن نائل رغم أنه أنجح كتاب الجيل الحالي، لكنه لم يكن مرضياً عنه يوماً من معسكر الأستاذ، ربما لأنه يفكر بطريقة مختلفة عنهم، من أين سأنهل الحقيقة؟.

ما عرفته أن محمود ونائل في البدايات الأولى، كانا يربضان في ندوات ومكاتب ومقاهي الأستاذ، بدأ محمود وجر صديقه، الذي لم يكن مرحباً في البداية لكنها حب التعرف على ذلك العالم الجديد.

تلميذان أحدهما ناقد ثائر ملتهب، وآخر معجب، ولكن الأهم أن الأول من مدرسة مختلفة، لا يحبها الأستاذ ولا يمكنه أن يتعامل معها، رفض المختار
أن يعمل نائل معه يوماً ما، الآن كتاباته تبيع الآلاف والراحل يكتفي بالعشرات، وأخر 4 أفلام للأستاذ خسرت، وفي نفس الفترة كان نائل يصعد منفرداً للصدارة.

لم أفكر أو يشغل بال أحد أن نهاية الأستاذ كان سببها الفشل التجاري، فهو لم يبحث عنه يوماً، إن خفوت الوهج لم يكن يوماً مرتبطاً بالأرقام والمال، وحتى على صعيد الإنتاج كان للراحل وسائله وألعابه في إقناع المنتجين بتدعيمه، حقق من النجاح والصيت والمكانة ما يمنحهم الثقة، لا شك في أن الأزمة كانت شخصية.

التفكير في الذهاب لنائل كان ضروريًا، لم يكن السؤال ما الذي سيحكيه نائل، ولكن شخص مثله ليس بحاجة لأحد، المختار ليس منافساً له من الأساس، هو ربما يكتب تاريخًا يفوقه، لماذا يشترك معي في لعبتي، هل سيستفيد إذا ما نشرت تحقيقاً عن تفاصيل الأيام الأخيرة للأستاذ وأسباب انطفاء روحه، عرف عنه أنه مراوغ وذكي ولديه قدرة شيطانية على الإقناع، ربما يدفعني للتراجع عن البحث أو يفتح لي أبوابًا ظننتها أقفالًا.

المشكلة إن نائل من تلك النوعية، كما حذرني منه محمود، يصنع دومًا هالة حوله، يعشق دور النجم بعيد المنال، ولكني في النهاية كنت أعلم أني سأقابله لكن كيف أخرج منه بما أريد، وهل سيصدقني أم سيراوغ.

أخشى أن أكون أسيرًا بين مجموعة من الكاذبين أحدهم بإسم الصداقة والعشرة، وأخر من أجل المصلحة والثالثة من أجل كبريائها وآخرين و اخريات.

حضرة الملقاط

نائل عيسى، شاب وسيم حديثه هادئ وواثق، قليل الكلام، يشهد له بالذكاء، بشرته بيضاء ناعمة، مدخن شره، كثيف الشعر، حاد في أحكامه، جاذب في حديثه، له خائنة أعين، خطَّاء ولكن لا يمسك عليه ذنبًا.

ينحدر إلى عائلة غنية، والده رجل قضاء، لديه تاريخ ثوري قصير، يتماشى مع طبيعته الثائرة والرافضة لكل سيء، رباه أبوه، على كسر كافة الضوابط،
كان الأب الابن الوحيد المدلل لدى الجد إلى أقصى حد، ومن الأب للابن انتقلت كل وسائل الدلال والرفاهية.

كان نائل من المعجبين بأفلام المختار ولكن من غير المقتنعين بكثير الشخصيات فيها، أو بإندفاعاتهم، كان يميل للسلبي أكثر من الإيجابي، للطاغية أكثر من الضحية، كان يؤمن أن كل شخصية ضعيفة هي المفتاح لظالمها أن يمارس الغبن إلى أقصى حد، وكان يؤمن بهذه النظرية ويطبقها ولا عجب كانت دوماً تنجح.

منذ اليوم الأول، كان يعتقد أن الأستاذ مختار ما هو إلا سلف به من الصلاح القليل وما يستحق التغيير الكثير جداً، كان ملولًا إلى أقصى حد، ولا يتحمل مشاهدة أعماله، انبهر به في البداية، سأمها بعد وقت قصير.

وكان يعتقد أنه لو أعاد كتابة أعماله بعد أخذ نصف فكرتها وصياغة بقية الأحداث بالطريقة التي تروق إليه وحسب رؤيته سيحقق نجاحاً يفوق بكثير العمل الأصلي، لكنه كان يدرك جيداً استحالة حدوث هذا مع أعمال عرضت
بالفعل على التلفاز وشاهدها الجميع وخلقت شعبيتها في أزمان وعقول
سابقة، لكنه كان على أهبة الاستعداد لفعل هذا في أفعال زملائه وتحديهم أمام أساتذتهم بأن الفكرة معه اختلفت تمامًا.

لقبه محمود بالملقاط، لأنه كان يلتقط ما يريد فقط ببراعة وإحكام ونجاح يضاهي أكبر اللصوص والنشالين، لكنه لم يؤمن به يوماً ليس حقدًا ولكن
لأنه كما يصفه محمود: "يجرد الأفكار البريئة من نقاءها ويحولها لعمل
تجاري رخيص، ينسى فيه أي فعل خير، ولا يبقى في الذاكرة منه إلا المكر السيء".

تميز الملقاط بجرأة كشراك، لا بد من أن يسقط فيه الضحية ولو بعد حين، ولعل هذا ما كان يغضب محمود.

رفض منذ اللحظة الأولى ولو لوهلة أن يعمل في ورشة عمل الاستاذ، الذي في البداية كان يحترم تفرد الأخير وثقته بنفسه وحبه لأن يكتب منفرداً أفكاره ومشاعره، لكن سرعان ما تغير الأمر، حين نقل عن غير مصدر أن سر رفضه العمل معه هو عدم قناعته بكثير من أفكاره.

وشبه الملقاط الأستاذ بأنه، مثل قلب غبي، لا يفكر ولو كان يفعل لزادت أعماله العشرون في 30 عامًا إلى ستين أو أكثر، ولما لا فالراحل أمين دياب،

الكاتب الذي من نفس جيله وصديقه الشخصي بدأ مشواره بعده بخمس سنوات ومات قبله بعقد ونصف وزاد إنتاجه عنه 10 أعمال.

ومع الاقتراب من دوائر العمل الأدبي ومعرفة الأوساط الثقافية والإلمام بالطريقة التي يفكرون بها ومن يقترب من من، ودائرة كل شخص وشاكلتها ومن ينجح إلى جوار من، ومن يتناسب مع فكره ومن لا، تفهم نائل أنه من المستحيل له دخول حظيرة المختار، سيصطدمان.

قناعة نائل بأن أفكار الأستاذ قد باتت قديمة وغير قابلة للتطبيق في هذا الزمن، لم يمنع إيمانه القديم به ويفتته تماماً لكنه جعله أكثر تفهماً له، الاقتراب كان حتمياً، لا جدال في ذلك، ولا سبيل للندم عليه، المختار مفتاح مهم للغاية، دائرة معارف، الاقتراب من ضوئها سيلمعه لا شك.

نائل كان همزة الوصل الأولى بين ماهيتاب والمختار، عرفا بعضهما من خلاله رغم أنه قطع علاقته بالأستاذ قبلها، لم يكن من هؤلاء المولعين بفكرة تعددية العلاقات النسائية الحقيقية، ورغم ألق ماهيتاب لم تعجبه، لأنها شبيهة له، حمقاء من نفس فصيلته، ستناطحه.

كان نائل يندهش من أي فتاة يبدأ معها حديث قصير، ويمارس فيه الكذب عن براعة وبلا مجهود مضن، فيجدها تفتح أبواب انخداعها على مصراعيها وتصدق كل كلمة، بينما لو كان أصدقهم قد أخبرها بنفس الحديث لم أعارت نصف الاهتمام، هي فكرة اللغة والخطاب.

حيرته كثيرًا فكرة تصديق الناس للكذب بيسر ساذج، كان يحدث هذا أمام عينه، صديقه يخبره بعدم قدرته على إخبار فتاة ما بمشاعره خوفًا من

تصديها له، ويحدث هذا بالفعل ثم يكرر نفس الكلام مع مجموعة كاذبة من العبارات المتعلقة بأشياء عديدة ليست المادة فقط، ويراهن يصدقن، ويقعن في البراثن، كان يندهش ويحتقر ويستفسر كثيرًا بحثًا عن الرد.

لقد آمن أن الناس يمكنك أن تفوز بهم بالكذب عليهم، وكلما مر الزمن كان تحقيره للآخر يزيد، من قريب أو قريبة في سن الصبى إلى زميل أو زميلة في المدرسة والكلية، إلى زملاء عمل، بعد تعيينه في إحدي الصحف.

إن قناعة نائل بأن أفكار الأستاذ قد باتت قديمة وغير قابلة للتطبيق في هذا الزمن، لم يمنع إيمانه القديم به ويفتته تمامًا لكنه جعله أكثر تفهمًا له، الاقتراب كان حتميًا، لا جدال في ذلك، ولا سبيل للندم عليه.

اقترب نائل مع محمود من الأستاذ، مثلًا جيلًا جديدًا، حاول التعلم ثم تجرئان على الصدام، ثم فاز في النهاية، لتغير الزمن.

تقابلنا في سيارته بعد انتهاء التصوير، لم يكن لديه وقت عن حق لمقابلتي، لم أعرفه قبلها إلا من الحديث عنه من شيرين التي لم تكن تحب شخصيته لكنها أشادت طول الوقت بطريقة عمله وذكائه الحاد وعدم مضايقته لها لأنهما يعرفان بعضًا قبل الشهرة، ما ربطهما كان محمود، ولم يكن يهمها كثيراً مسألة قراءة الخبث في البشر أو الكتابة عن محاسنهم، أكثر ما جذبها أنها مثلت معه بصورة وجدته أفضل مما مثلت مع أي مخرج آخر، وبالطبع هذا يحسب له.

نائل هادىء وواثق لكنه يريد معرفة كل شيء ثم يقرر، حين يشاركك شخص ما في شيء لا بد له أن يكسب بالطريقة التي تحلو له، وحين يكون أغنى وأشهر وألمع فلا بد أن مغانمه ستكون أثمن.

- عرفت من شيرين أنك تكتب عن أخر أيام الأستاذ مختار، لا أدري ماذا تريد بالتحديد وكيف يمكنني مساعدتك؟ (كان يقود سيارته دون النظر إلي، لا أدري هل قصدها أم لا؟)
- أريد أن أرصد كيف تحول الأستاذ مختار في نهاية حياته لشخص كئيب بعد أن كان رمزاً للحياة والصحة والشباب؟ - هل تعتقد أن هذا أمر جدير بالاهتمام؟
- لماذا تقول هذا؟ هل ثمة خلافات بينكما؟ قد كنت سمعت.
- لا لا (حنق وحاول كظم غضبه) هذا ليس سبباً، وإلا ما كنت وافقت على مقابلتك من الأساس، سؤالي ما واضح، ما قيمة هذا (عبر بثقة وصدق عن سؤاله الذي حملته أكثر مما يحتمل).
- المختار له جمهور كبير، ويريد معرفة كل شيء عنه، مثله مثل أي شخص مشهور له شعبيته ونجاحاته واسمه الكبير، هل هذا يكفي (أضفتها سخرية للرد عليه)

ابتسم بتحفظ معجب وهز رأسه إطراءاً ثم منحني ابتسامة أخرى أكثر حرارة وخبثاً وبعدها دعاني لتناول الطعام في أحد مطاعم السمك النائية بالمعادي.

دلفنا للمطعم الهادىء، لم يتواجد إلا شخصين فقط كانا يجلسان في طاولة بعيدة، وطلب لنا كميات كبيرة من السمك والجمبري وشوربة السي

فود، من مناقبه الكرم، وثبت لي هذا حقًا، وأثناء انتظار الطعام بدأ في مناقشتي.

- أنت غريب جدًا، لماذا وضعتني ضمن قائمة المصادر؟، أنا لم أعمل مطلقًا مع الأستاذ مختار بل أني أصنف ضمن المغضوب عليهم بالنسبة عشاقه، هناك على "فيسبوك" و"تويتر" جمهوره يسبوني ليلًا ونهاراً- بالتأكيد تشاهد شيء من هذا.

لا أدري لماذا أخذني للمطعم البعيد إذا لم يكن يريد أن يروي لي شيئاً، هل إكراماً لشيرين أو محمود، ربما، كانت هذه مقابلتي الأولى معه، رغم أن تعرفي عليه قبلها كان ممكناً بحكم عمله مع خطيبتي، لكني تيقنت أنه معجب بالفكرة.

- لكنك كنت تلميذه وتعرف الكثير مما قد ينكره أو يخفيه محمود، حاورته قبلك وكأنه دلني عليك بغير قصد، أنت من عرفته الأستاذ وأنت من اختلفت مع المختار، ورفضته وقت كنت نكرة لا يعرفك أحد، بالتأكيد أنت هزمته جماهيرياً وتجارياً، ويمكنك أن تقرأه جيداً، وعلى الأقل تحلل لي إذا لم تمنحني إجابات جازمة، مع من أتحدث وكيف أبدأ.

ابتسم نائل وكأنه يعلم أني أكذب عليه وأحاول استدراجه لمعرفة الخبيث في حياة الأستاذ، الأشياء التي لن يلقطها إلا شخص من فئته الكارهة لهذا الرجل، حياً وميتاً.

لنتفق أولًا، قبل أي شيء فكرتك أخذتني، ولكن المصدر الأول الذي يجب أن تسأله هو ماهيتاب، بعدها يمكنني أن أجيبك على كل الأسئلة وأفتح لك أبواباً أخرى.

- بالطبع كنت أخطط لذلك، ولكني اعتقدت أن الحديث معك قبلها أفضل.
- لا بالعكس، عليك أن تظفر منها بكل الممكن، فهي أقرب شخص له، مثل هذه النوعية من المصادر تكون أقوى، العلاقة المباشرة، الرفيقة الأخيرة، الوارثة، العين التي رأت المشهد الأخير، وأغلقت الستار.
- هل تنصحني بأسئلة بعينها لماهيتاب، الجميع متفق على إنها من تلك النوعية الشرسة، صعبة التعامل ومن غير اليسير الخروج منها بمعلومة.
- أعرف ماهيتاب جيداً، عليك أن تكون خبيثاً لأقصى حد، وتلقائياً وحذراً وحمولًا يا صديقي (نظر للطعام الذي بدأ يتوافد على الطاولة) وعليك أن تتحمل وطأة هذا الطعام على معدتك، لكنك أصغر مني، لم تبدأ العقد الرابع بعد.
- في الخامسة والعشرين

(نظر بدهشة وابتسامة صفراء ضايقتني لكن لم أحاول كشف سرها).

- على العموم، سأكون صريحاً لأقصى حد، سيكون مشواراً ثقيلًا، فظاً غليظ القلب، وستنفض من حولها، ولكن حاول قبل أن نتركها أن تخرج بأي إشارات بعدها سأمنحك مفتاحاً جديداً.

- حسنا لنرى.
- احرص على أن تكون الأسئلة قليلة ومقتضبة ولا تخبرها بطبيعة عملك (مكث يفكر للحظات ثم أردف) لا قل، لا تخف، في النهاية هو تحقيق صحفي، أليس كذلك.
- بالطبع يا أستاذي.

خرجت من حضرة الملقاط في حالة نفسية رائعة، سعدت بالنذر اليسير المقتضب وحلمت بالبحر الذي سيحفره لي بعد مقابلة ماهيتاب التي تحاصرها المخاطر، ولكنها ظلت شراً لا بد منه.

****

مساء صيفي، نسمات ليلية منعشة، ضاحية الشروق بمساحاتها الشاسعة، طريق يسير في القيادة، كانت الرحلة إلى ماهيتاب مقلقة منذ البداية، لدي الكثير من القصص والروايات ليس فقط عن جلفها وعصبيتها

في التعاملات، والمتأثرة بتدليلها منذ الطفولة، ولكن غيرتها الجمة على زوجها روتها لي، شيرين خطيبتي، البطلة الأخيرة في آخر أعماله.

عملت بنصيحة الملقاط، أسئلة قليلة ومقتضبة ودون إبداء فضول بسرد المزيد من التفاصيل، كي لا أخرج من مكتبها مطروداً أو مهاناً ، دلفت إلى منزل المختار، للمرة الأولى بعد رحيله، نساؤه كن يرسمن منازله، كما يحلو لهن، فتحولت بيوته إلى روايات بطلاتها زوجاته، كل شيء فيها يعكس روح وقبضة البطلة.

عاش وكأنه يريد أن يدخل فيلم ترسم ديكوراته وصوره وحوائطه وروحه البطلة الحسناء، بيئتها وروحها وكأنه يعيش فيها وليس في منزله.

مكتبات شاهقة الارتفاع، أثاث كلاسيك، محافظ، ذوقه عا ٍل، لكن قديمًا، تغيب عنه روح المختار المرحة ولزماته الساخرة، لكنه باهظ الثمن وجودته لا تضاهى.

كآبة وضوء ذهبي خافت، غير مباشر، يزين مشاعر باهتة، لم أحب يوماً أي حرف كتبته كانت بعيدة عن التصديق.. لا أدري لماذا ولا أدري كيف صدقها.

يا ليت ولو مات في حضرة حسناء أخرى بروح حية، شبابية طفَّة، لكنها اختارها في العقد الثالث، وليست مراهقة، وها هي الآن على أعتاب الأربعين، من جيل محمود ونائل.

خالت الروح الحية العتيقة للمكان على الأستاذ ولكن ماهيتاب لم تشبهه يومًا، حين ظهرت كنت واضحاً ومباشراً، أما هي فاستعملت لغتها، دون

حتى تحيات البدايات المملة وعديمة الفائدة، إنها نصائح نائل، لا أدري لماذا طبقتها بالحرف.

بوجه متلألئ كبلورة لامعة من مساحيق التجميل، مفكر وعابث وحامل للهم، من وحي التحول إلى أرملة في غرة العقد الخامس، دعتني للجلوس وطلبت لي قهوة.

- كيف حالك؟ هذه ربما أول مرة نلتقي أليس كذلك؟.
- الحمد لله لا التقينا كثيرًا هنا من قبل في جلسات وخارج هذا المنزل جمعتنا أكثر من ندوة مع الأستاذ -رحمه الله-.
- أنت صحفي ومصور.. أتذكر أني شاهدتك مع شيرين في إحدى المرات.
- نعم هي خطيبتي. - منذ متى؟
- لماذا السؤال؟

(ردي جاء بدهشة مرتبطة بالصورة القديمة لي عنها، فأخذت كل ما تقول بحساسية)

استنكرت السؤال وردت بعصبية :

- أنت هنا لتوجه لي حزمة من الأسئلة، وتستكثر علي سؤالي اليتيم.
- لا أقصد، واعتذر صراحة كنت أتخيلك، على حسب ما سمعت متذمتة انطوائية حادة قليلة الكلام.

- يبدو أن الغبي أو الغبية (قصدتها بحرقة وهي تحدق في عيني) التي روت لك هذه الرواية وقحة بشكل زائد عن الحد.

شعرت لوهلة أنها تقصد شيرين، من الغباء أني شعرت فقط ولم أكن متيقنًا، لكنها سذاجة ودهشة البدايات، قبل أن ينهار كل شيء في لحظات سريعة متتابعة كصرخات الرعد في ليلة شتوية كئيبة.

- هل تعلم علاقة مختار -رحمه الله- بشيرين؟ - ماذا تقصدين؟
- لا أنت تدرك جيداً ماذا أقصد؟
- قالت إنك كنت تغارين منها بسبب جمالها.
- أنا لا أغار من أحد ، ثمة خيلاء ونرجسية وعظمة نالت إعجابي حين قالتها بثقة وصدق وأنوثة وحدة وجاذبية ربما كان هذا هو التفرد الذي قاد المختار إليها أو قادها إليه.
- كيف كانت علاقتك بالمختار، أم كنت فقط صديق ممثلته المفضلة. - ماذا تعنين بالمفضلة؟ ولا أريد أن يكون وراء هذا التعبير شيئًا سلبياً. - لا يحب الرجال أن يعرفوا بزوجاتهم، لا أقل خطيباتهم، لكن يبدو أنك

تقل عن الرجال الذي عرفتهم وتعاملت معهم، خطيبتك هي مفتاح قدومك إليه وجلوسي معك، أليس كذلك.

- أشعر كأنك تريدين إهانتي، بل وتصرين على ذلك مهما حاولت التجاهل، وهذا أمر مرفوض.
- على العكس تمامًا، ولكن إذا كان هناك ثمة إهانة فأنت من تهين نفسك، وعلى العموم لماذا جئت لي وعن أي شيء تريد أن تسألني،

ولا تقل لي كما قلت في الهاتف أن صديق مختار رحمه الله، لا آراك إلا تابع لأحد معارفه، هذا فقط ما يمكن لعقلي تقبله، ومن أجل هذه الصلة البعيدة قبلت أن أتحدث معك.

دخلت العاملة وهي تحمل صينية وعليها فنجال القهوة ووضعتها على الفور وقدمت لماهيتاب كوبًا من الشاي، احتست منه رشفة وهي تومئ لي كي أتحدث، لكني تصلبت وشعرت بقلق من أن أخبرها بسبب زيارتي أو الموضوع الذي أكتب عنه، لكن شيء ما جعلني أصارحها وكأني أرد إهانة.

قلت لها أني أبحث عن أسباب تحول المختار في آخر سنواته إلى شخص قليل الظهور، كئيب المنظر، بلا روح أو ضحكة ووفاته المفاجئة التي لم يسبقها حديث كبير عن معاناته من مرض خطير ولم يصحبها تفسير، ثم سألتها مباشرة: "لماذا خفت نجم الأستاذ؟ ومن الذي أطفأ الجذوة؟

- وبماذا تريدينني أن أجيبك، إذا كنت أعرف شيئًا، ربما أخفيه عنك لأنها حياة شخصية، ورغم أنه لا يوجد شيء إلا أمراض الشيخوخة الطبيعة وعواقبها الوخيمة فليس لدي شيء كي أقوله لك، واعتقد أن هكذا تنتهي المقابلة.. (قالت هذه الكلمات بثبات وثقة ويقين خادع)
- اعتقد أن الأستاذ كان منفتحًا أكثر منك على حياته الشخصية ولم يكن يوصدها أو يضع الحواجز عليها مع جماهيره ومعجبيه، لم يكن يضع أبوابًا على حياته وكان يصورها كما هي.

- لا ترص لي هذه النوعية من الأسطوانات، لن اقتنع بها، أنت من الأساس لن تقنعني، أخبرك بشيء، ربما لو كان من يحدثني شخص آخر لتحدثت بعفوية.
- ما سر هذه العداوة غير المفهومة، أنا لا أعرفك من قبل، لماذا هذه النبرة؟
- اشرب قهوتك قبل أن تبرد، اعتقد أن هذا هو الشيء الوحيد الذي يمكنني أن أقدمه لك.

ثم وقفت وأشارت إلى المكتبة، وبدا كما لو أنها تريد ليس الا الاعتذار، لكن من على حافة برجها العاجي ولكي لا تظهر في وجه خبيث قالت: هذه مكتبته كبيرة وضخمة وبها الكثير من الأسرار، لك منها ما أردت ولكن بعيدًا عني،

سأذهب الآن وحين تريد أن تخرج يمكنك أن تستدعي العاملة، اسمها شيرين مثل خطيبتك.

قبل أن تذهب استوقفتها بسؤال حاد اللهجة.

- ما سر خلافك مع شيرين؟ هل هناك مشكلة ما حدثت بينكما؟
- لا أعرفها لهذا الحد كي يحدث بيننا أزمة (حاولت تغيير دفة الحديث، لكني كنت متيقناً من كذبها).
- هل تعلم أني معجبة بفكرتك ولكن لا أريد إجراء الحوار معك؟
- لماذا؟
- افهم أنت.
- ربما لأني غير معروف.. مجهول لا أستحق إضاعة الوقت معي

- بالعكس أنت تبحث كها „و بعيد عن الصورة .. وهؤلاء يستمتعون أكثر، يأخذون من الشيء أجمله ومن الحياة روحها الحلوة، ولكن بمجرد أن تصبح جزء من المشهد سيختلف كل شيء.. حاسة التذوق ستختلف، سيكون مرارًا.
- ولكن لا يمكن أن أكون جزء من القصة.. علاقتي بالأستاذ مختار لم تزد عن 3 أو 4 مقابلات على الأكثر، أحاديث عابرة لكنها آخاذ، حزنت حقًا لموته.

تركتني بعد ابتسامة صفراء، شيرين لم تخبرني بأي شيء من هذا القبيل من قبل، كانت تتغنى بالأستاذ وفضله وآثاره عليها لكنها تجنبت ذكر أي شيء عن رفيقة أستاذها، ثم ضمت المختار نفسه في آخر الأيام لقائمة زوجته، ربما ظهرت ماهيتاب في حديثنا في حوارات مازحة أحيانًا عن غيرتها منها، لعبة خبيثة تستجدي منه إشعال غيرتي، لم اقتنع يومًا أنه يمكن لشخص تجاوز السبعين أن يحب فتاة عشرينية لكن الأرملة الشرسة أدخلت لقلبي الشك.

ماهيتاب دومًا كانت حاضرة مع الراحل في أيامه الأخيرة، رأيها وشخصيتها وكتاباتها وتعديلاتها وروحها التي باتت تظهر في كل أعمال ما بعد الارتباط بالأستاذ، تحولها لجزء منه، هذه أشياء لا يمكن تجاهلها، لكن شيرين لم تكن تتحدث عنها إلا خطفا، ثمة شيء مريب يلوح في الآفاق.

البحث من خارج الصورة

ماهيتاب تركت أثرها الغائظ في نفسي، لماذا لم تخبرني الحسناء التي أحبها بهذه الأمر؟، وما الذي يستفز إمرأة هكذا من إمرأة أخرى إلا.. لا مستحيل، اهتاجت الأفكار الخبيثة، لعبت في رأسي، لكني أدركت منذ اليوم الأول، إنه ليس باليسير أن ترتبط بممثلة، ستنصت للكثير، سيكذبون ويغارون، خاصة إذا ما كنت تعشق الحسناء الأجمل.

بالإضافة إلى أن ماهيتاب تكبرها بخمسة عشر عامًا، الفارق ليس مهولًا لكنه معقولًا في العلاقة الأولى للمختار، شاذًا وغير منطقي في الثانية، ثمن شيء ما ناقص في الصورة، إما جنون العجوز أو حقد الأرمل.

لأول مرة حاولت الاستمتاع وكأني انتظر حدثًا مشؤومًا وأبحث عمن يخبرني به، ربما تفهمت جزءًا من غموض محمود وصمته أغلب الوقت وحديثه الفاتر الذي لم يحقق ما يروم له عقلي لرسم هذه النهاية الغامضة للأستاذ الذي حسبته عظيمًا.

البحث هو المتعة الأسمى في الوجود، كل الاكتشافات العظيمة ما هي إلا عمليات بحث، العلم هو بحث تتقيب في روح ما وبإيمان ما عن شيء ربما ترى منه القليل جدًا، لكنك تؤمن أنك قادر على الولوج إلى منتهاه بشيء من الصبر، وكلما كان الباحث بلا مصلحة شخصية مع الشيء تتقت المتعة وصفت تمامًا.

ورغم متاعبي في رحلتي إلى المجهول وغموض شخصيات وتملل آخرين وكذبهم، قررت استكمال السير.

راهن ت على شكري فايد، ناقد صحفي وصديق مقرب من الأستاذ، كان من الدائرة المقربة للغاية في الأيام الأخيرة، وأعرفه من حكم عملي في الصحافة الفنية.

كتب فايد كتابين عن الأستاذ واحدًا عن أعماله التي رواها وأخرى عما أخرجه، يمكنك أن تقرأ روح الأستاذ في شخصياته، بجنونها وعفويتها وحبها للنساء والحياة والمغامرة والحق، ولقد قام شكري بهذه المعادلة حين كتب عن سيرة المختار.

****

حي المعادي

تجولت بسيارتي على كورنيش المعادي في طريقي إلى منزل الأستاذ شكري في شارع النصر، المكدس بالسيارات والمطاعم والمحلات المكتظة بالبشر، والروح الحية، والمنظر الخلاب من زجاج البيوت المرصوصة على جانبي الطريق المزدحم.

دلفت إلى داخل المنزل، رحب بي الأستاذ بحفاوة الأساتذة الكبار القديمة والحقيقية، الذوق الذي لم يعد موجوداً في أغلب أبناء جيلي، ولا أستثني نفسي، الأمر قد يكون مرتبطًا بالسن، حنان الكبار، ثمة راحة نفسية شعرت بها وسط كتبه وأوراقه.

منزله كان مليئاً بمجموعات من المجلات والكتب والصحف في حجرة مكتب تقليدية لصحفي قديم، أيام الصحافة الورقية، لغتها الخاصة ورق الدشتي، الأقلام، الكتابة بالأيدي، الركض للحاق بمؤتمر، الزمن الصعب حقاً، ولكن المذاق بلا أدنى شك لم يكن مملًا، مثل البحث على جوجل أو انتظار الدعاوي الرسمية من المراكز الإعلامية.

لدى الأستاذ شكري معلومة أخبرته بها عن سبب الزيارة، "أكتب شيئًا ما عن الأستاذ" هل هذا كاف؟ بالطبع لا لكنه يجعل الزيارة جديرة بالاهتمام والترحيب، لكن كان علي أن أتفهم أن علاقته الشخصية بالراحل قد تعيقني عن معرفة الكثير، كان يحبه بصدق.

تناولت القهوة التي تمتعت مثل أثاث المنزل بدقة ومذاق رائق وطيب، مرت بي لحظة أردت لو أكمل حياتي هنا لأعيش الزمن القديم، وأعيد تشغيل فيلم من العقد الثامن، عودة مواطن، سواق الأتوبيس، ضربة معلم، لكن

الزمن لا يعود للوراء، وبالتأكيد أبي وأمي حين كانا يعيشان في هذا العصر حينا كانا في مثل سني الآن، لم يكن لديهما هذا الإيمان بشباب جدد، أو كما تقول الحكمة "المعاصرة حجاب".

سألت الأستاذ شكري عن طبيعة الحالة الحزينة للأستاذ في أيامه الأخيرة ولماذا انطفأت روحه، وحاولت التخابث عليه بالسؤال عن صحته وحالته النفسية وعلاقته بإبنه الذي يعيش في فرنسا ولا يزوره إلا قليلًا، علاقته ببنته الوحيدة لم تكن سيئة رغم أنها أيضاً عاشت بالخارج صحبة أمها في لندن، لكن أشيع الكثير عن فتور علاقته بنجله.

تحسست فيه غموض محمود مع ضيق ماهيتاب ولكن بصورة أقل عن الاثنين، الصديق يختلف عن زميل العمل وبالطبع عن شريكة الحياة.

- في حياة كل شخص أشياء لا يعرفها الناس.. خاصة هؤلاء المرهفين وخاصة هذا المجنون (أتبعها بابتسامة حزينة) .. الفنان الحقيقي مثل مختار مشاعره تختلف، يشعر بما لا نشعر به في الفرح أو الحزن. - وبماذا كان يشعر؟ ، بعيداً عن المرض
- زوجته!!
- لم تحب الحياة مع شخص يكبرها بثلاثة عقود على أساس أنها لم تكن تعلم ذلك قبل أن تتزوجه!
- لا لا ترسم الصورة هكذا مختار كانت روحه أكثر شبابية منك ومن جيلك كله بل كنت أشعر أنها تكبره هذه هي الحقيقة وهو الوحيد الذي كان يعيشها ويراها (كلماته خرجت بمرارة واضحة وصدق حقيقي)

- كانت تضيق عليه ، تبعده عن الحياة التي تعود عليها، تفرض رأيها في فريق عمله ومساعديه، وأفكاره، هذا كله بخبث وتروي وتدريجياً
- ماهيتاب فتاة وحيدة، تتحدر إلى عائلة غنية، متملكة بطبعها، ببساطة حاولت أن تتملكه في ليلة العرس قالت له.. "من الآن أنت ملكي أنا".. هنا أسقط في يده
- ماذا تعني؟
- فهم أنه سقط في الشرك، وقع في الفخ كما كان يصف حالته ، حدث الزواج في السنة التي ردد فيها عادل إمام هذه العبارة في فيلم "مرجان" وتحولت إلى مزحة بيننا لكني متيقن من إنها كانت تجرحه. - هي أم المزحة.
- الاثنان.
- ولكن ألم تدرك تلك الغبية أنه قبلها تزوج 3 أو 4 مرات.
- كان رهانها بالإضافة إلى عامل السن لقد قرأته بشكل ممهل هذا وتملكته حقاً حتى اختنق فمات.
- في ليلة العزاء لاحظت أن حواراً حاد دار بينكما (ارتاب لكلماتي وكأنها لامست شيئاً ما لا يريد أن يحكيه)
- لا أتذكر ولكن كانت ليلة كئيبة وحزينة (ثمة تغيير في أسلوب حديثه جعلني لا أصدقه)
- ما سبب الحديث الغاضب يا أستاذ أصدقني القول.
- صدقني لا أتذكر سأقوم لإعداد فنجاني قهوة آخرين (نهض على عجل وهرب)

ليته لم يهرب، تركني في سجن من الأفكار السوداء، يبدو كأنني أهرب من شيء ما عن عمد، كل شيء يشير لوجود أزمة بسبب شيرين، ربما علاقة
ولما لا، زوجته الأخيرة كانت في سن ابنته، علي أن أبحث عن الإجابة في المكان الصحيح.. علي أن أواجه المتهمة ذاتها، من يحق لي أن أسألها بشكل شخصي.

هممت بالرحيل وجمعت أوراقي وطلبت منه الحصول على كتابين ووافق على الرحب والسعة، واصطحبني إلى باب المنزل ثم ألقى قنبلته في وجهي فجأة، كنت انتظرها ولكني خشيتها.

- ألم تتحدث معك شيرين عن شيء ما.
- شيء مثل ماذا؟ (قلتها بحدة وخوف وترقب) ثم عدت إلى الداخل وأغلقت الباب.

طلب مني أن انتظره لدقائق حتى يرتدي ملابسه ويخرج معي للتمشية وتناول القهوة في مقهى قريب، الخروج في الهواء الطلق وسط الناس، وسيلة مثالية للتحدث بعفوية ودون خوف أو حسابات، أسلوب لاستحضار الصدق حتى لو كان صعباً، فك الأزرار وحل العقدة.

وبالفعل خرجنا وتسكعنا ونجح أستاذي في التشويش على حالة القلق
والترقب التي كنت فيها حتى ولو بطريقة مؤقتة، حين وجه لي السؤال الأول في الاختبار.

- شيرين فتاة جميلة مرحة والمختار كان كذلك أيضاً، فارق السن بينهما يشبه الجد والحفيدة، طبيعة العلاقة الودودة لم يكن بها أي

شيء سلبي ولكنها كانت قريبة من قلبه، ربما لأنها كانت قريبة من ابنته التي تعيش في قارة أخرى مع سيدة هاجرت بسببه.

- كانت تقول لي أنها تشعر بأنه والدها الثاني ولكن ما الذي أغضب ماهيتاب منها بهذا الشكل، فهي تعلم أنه مخرج ويعمل مع فتيات حسناوات صغيرات في السن، ثمة شيء غامض وأنت لا تريد أن تصارحني.
- لا على الإطلاق (كان يتوقف فجأة .. وكأنه يحاول استحضار شيئاً ما)
- لماذا أشعر دوماً بأنك تحاول اختلاق عذراً ثم في النهاية لا أر جرماً،

هل أنا على صواب؟

- إذا ما كنت تشك بهذا إلى هذه الدرجة فلماذا أنت معها حتى الآن؟ - لم أسألها بعد
- ومتى ستسألها؟
- حين أعرف الحقيقة وهنا سأختبرها أنا بمعتقداتي وأفكاري وليس بتهور غبي لا يفهم شيئاً وجميع من حوله يكتمون عليه شيء ما، إما من أجل مصلحة شخص متوفي عجوز متصابي، أو زوجة غيورة أو تلميذ نجيب في النهاية جميعهم يمارس الكذب جنساً، ولكن الحجج تختلف
- أنت تنتمي لعائلة غنية وعارضت أهلك من أجل الارتباط بشيرين وأثق بأنها تحبك وثق أن شيئاً لم يحدث بينها وبين المختار مما تفكر فيه.
- لماذا تكرهها ماهيتاب؟
- اذكروا محاسن موتاكم يا أخي.

- نعم (ضربتني دهشة من المصطلح) ماذا تقصد؟
- لا أقصد شيئاً .. ولكني فقط لا أعرف كل ما في الأمر إن ماهيتاب كانت تغار منها لا أكثر ولا أقل والأسباب مفهومة وواضحة.. خطيبتك حسناء وأصغر وأصبى.
- ولكن العجوز الراحل لم يكن الفتى الأنيق الوسيم الصغير في السن الذي تتهافت عليه النساء
- تصدق أنت تنطبق عليك كل هذه الصفات وسيم وصغير وأنيق وغني ولكنهم لن يتهافتن عليك مثله.. تدري لماذا؟
- لماذا؟ (صاحبتها بإتبسامة استنكار وتحقير رفضاً لدخولي مقارنة من ذا النوع من الأساس)
- لأن الروح والحياة ليست بالسن ولأن في رؤوس النساء أغوار لا تستطيع الولوج إليها ولو بعد حين.

****

عدت إلى المنزل في حالة تخبط واستنكار، فكرت على الفور بالاتصال بشيرين والبحث عن أسئلة لإجاباتي، كنت أثق جيداً في أخلاقها ولكن في هذه الحالات، تتدفع داخل الرأس أفكاراً عديدة، ابتسامة قد تتحول إلى ضحكة ماجنة، تقرب صديق قد يتفهمه شخص ويسيء فهمه آخر، علاقة إنسانية طبيعية إلى أقصى حد، قد يتخيلها آخرون لا يرون الصورة كاملة علاقة محرمة، يروم الناس تصديق الخيال الجامح خاصة حين يتعلق الأمر بالنساء.

الأمر يرتبط بالثقافة والتربية والسن والرغبة وكيف تنظر إلى تلك الحسناء وكيف تراها، ولكن هذا كله لا قيمة له، فلقد كان معروفاً للجميع أنه عاشقاً للنساء، ولا يوجد دليل أبين من الأرملة العبوث.

قررت هنا أن أنتحى تماماً ونهائياً عن استكمال كتابة هذه الأوراق، لا يهمني الآن كيف انتحر، أو قتل، هو متهم، والدليل مقولة "اذكروا محاسن موتاكم" التي ألقى بها شكري في وجهي فنسج غشاوة على قلبي نحو كل

شيء، هناك جرم قد ارتكبه هذا الذي يصفونه بالعبقرية وأنا الباحث عن الحقيقة أحد ضحاياه.

قابلت شيرين في اليوم التالي وسردت لها كل ما حكي لي من قبل الأستاذ والأسلوب الفج الخبيث لأرملته، كل ما قيل عنها وكل مشاعر الإهانة والألم
والشك التي عشتها، من الأول للأخير ، فوجئت بردة فعلي كثيراً، لم تكن
نتوقع أني من هؤلاء الفتيان المتخلفين على حد تعبيرها، ودافعت عن
نفسها حتى النهاية، صدقها كان يشعرني بالحزن لأني أسأت الظن بها، لكني طلبت منها تفسير وحيد.

- ماذا تعني جملة اذكروا محاسن موتاكم؟
- لا أدري ماذا يقصد، ولكن ربما يقصد شيء آخر ليس لي به علاقة. - ما الذي حدث؟ وجعلها تكرهك لهذا الحد؟.
- غيرة ، شعور بالنقص

إجابات باردة وواضحة ودقيقة وصريحة، بصوت قوي ليس به عتب بل إقرار بإرتكابي خطأ وتوعد مبطن بالرد عليه في وقت، أما أنا فكنت كمحقق يضغط على المجرم كي يقر بكل شيء، منتهى العبثية، لكن ثمة شيء هي تعلمه ولا تبوح به.

- هكذا فقط؟ هل أنت أول ممثلة يعمل معها منذ عرفها (قلتها بإستنكار وغيظ)
- لا أنا أجمل من عمل معها قبل وبعد أن عرفها (قالتها وهي تنظر في عيني بجرأة عاهرة وتفاخر ملكة وإباء حرة)

حين تحدثت شيرين، رغم صمتها عن الكثير، اختفى كل شيء زال الشك إلى غير عودة، أعرفها من الجذور، هي الجريئة التي لا يمكن أن تخون ولو على رقبتها ألف سيف، ولا تحب إلا بشروط شمولية صارمة، وأنا وافقت على الصفقة منذ البداية، لعلمي أني سأكون الفائز الأكبر.

شيرين تلك الحسناء المتمردة القادمة من على شواطئ رأس البر، النزوح إلى عالم جديد لم يكن يوما بالأمر السهل، أن تعيش وحدها في القاهرة، كان درباً من الخيال ولكنه حدث، طرح الفكرة من الأساس خلف وراءه مواجهات مزعجة مبكية بين الابنة والأم، تعليقات ساخرة وناقمة وازدراء من الخالات والصديقات التي كانت تصفهن شيرين بالحيزبونات.

الصدامات وحدها لم تكن ستنجز أهداف شيرين التطلعية في الخروج إلى العاصمة، احتاجت لشيء من التحايل والتحالفات، عقول تثق بها الأم، لم ترغب أن تتحول للفتاة اللعوب التي خرجت فجأة من تحت عباءة العائلة
لتفعل ما يحلو لها، تدرك أنهن لن يتوقفن عن الخوض في عرضها، ولكن لأمها قلب تراهن على تصديقه لها وهنا بدأت اللعبة.

للمختار دور في هذه الأفكار، بالطبع قرأت كل رواياته وتحولت لمعجبة من الفئة الأولى ومهووسة تصدق كل ما يقول، من خارج الصورة، قبل أن تصطدم وترتطم بالواقع وبالطبع لم تكن وحدها، زاملها في هذا الهوس كثيرًا.

حاول الروائي الراحل التصدي لقضايا المرأة وفي كل قضية يحلل ويفسر روح أنثى أو أنثيين أو مجموعة، بظروف ورغبات وقيود مختلفة، شاهدت نفسها في بطلاته بسنوات عمرها من المهد للثورة.

صرخاتها كانت مرعبة تحرك الصخور وتوقف العقول عن التفكير تشتت أمها وتجبرها كثيرا على البكاء، هي عادة تخلت عنها في سنوات ما بعد النزوح للعاصمة، كأنها تصيح في وجه حجاب مبكر وسنوات غلق وحرمان مادي ومعنوي.

حملت في قلبها ثقة خلقتها ثقافتها العالية من مكتبة والدها الراحل التي ضمت أصنافا شتى من كتب القانون والفلسفة والتاريخ والأدب والفن، وسرعة بديهة تعلمتها مع الزمن.

تلك الكتب استخدمتها كي تصبح مميزة على الأقران والخالات والأقارب والأصدقاء، حين شرعت في استكمال أول رواية قرأتها كانت تبدأ رحلة الخروج بغير عودة من هذا السجن الأنثوي الذي فرضته الأم.

تدين ريفي قادها لحفظ لأجزاء مطولة من القرآن الكريم وكم غير قليل من السنة النبوية، إضافة للاطلاع على كتب شتى عن سير الصحابة والتابعين وقبلهم الرسول نفسه، حمدت الله على هذا التدين وتلك الأفكار التي ورثتها وجعلتها مميزة سواء في مجتمعها الضيق أو فيما بعد حين خرجت إلى الساحات الأكبر.

حين قرأت سيرة الرسول أحبت لسانه العطر، فكرة ثورته على مجتمعه برسالة حق لم يتفهمها مجتمعه، بل وأحبت روح صحابته الثورية في الدفاع
عنه ولسانهم الزلق في الرد والتعامل مع الأعداء، أرادت أن تطلق لسانها هكذا في وجوه كثر، علمت أن هذا سيحدث وسيتاح بفعل غباء البشر والذي لن يختلف كثيرا بين مجتمع بلدتها الصغيرة والعاصمة الكبرى.

عمها حازم اختلف كثيرًا عن والدها، لم يكن متطرفا في أفكارها يمينًا ويسارًا مثل الأخ الأكبر بل دبلوماسيًا لآخر نفس وهو فقط ما أرادته على الأقل في تلك المرحلة، التحول.

نجح حازم في إقناع الأم باستضافة شيرين في منزله خاصة أن له بنتين وليس له أولاد من مثل سنها مما ينفي شبهة التحريم طالبا منها منحه حق الاستمتاع بتحمل مسؤوليتها ولو لفترة وجيزة وهو ما لم يتمكن منه بسبب بعد المسافات بعد وفاة أخيه، أراد ممارسة هذا الدور الذي لم يتمكن منه في السابق لأسباب مادية، وبسبب عدم حاجة ابنة الأخ وأمها، علماً بأنه لم يفعل هذا اقتناعا منه بما تريده شيرين أو اعتراضا على أفكار الأم الساعية لتزويجها أمس قبل اليوم ومنذ سنة وليس بعد عدة أسابيع.

أحب حازم شخصية بنت أخيه الثائرة ذكرته به شاهده فيها، ورغم تناقضهما فلقد حن لتلك الأيام الخوالي حين يصطدمان في صراع غريب لإثبات الرأي ولا يستسلم أحدهما في النهاية ولا يفكر حتى في مناقشة أو احترام أفكار الآخر، لكن حب الأخ الصغير لم يقل ولو لدرجة بينما بقي قطار والد شيرين بلا محطات حتى خرج عن المسار لآخر مرة وتركها طفلة يتيمة في عرين أمها بسبب حبه للفن ودون دخول نقاشات طويلة أو إثبات شيئا ما.

أن تموت وأنت مستمتع هو أقصى درجات الحياة، في مسرح نازح صاعد نحو مصر العليا بفعل الحريق الذي ضرم في وجوه الممثلين والجمهور والعمال وكل من سولت له نفسه حضور عرض مسرحي في تلك الليلة.

تم تغيير الديكور لأسباب فنية زادت الشموع، وسط أجواء ظلامية، لم يتواجد من رجال المطافئ إلا عامل واحد رغم طلب تأمين من الحماية المدنية، لكن البيروقراطية حكمت ، وبفعل النار التي يضرب بها المثل في السرعة، تحول المسرح لقطعة فحم، عدد الناجين لم يتجاوز نسبة ٣ في المائة من الحضور ليلتها.

تبدلت بوابات الدخول والخروج لإضفاء شيء من الواقعية على العرض لكن الواقع الحقيقي كان أكثر دموية وعنف. وحين وقعت الواقعة لم يكن الحاضرون يدركون أين الأبواب الحقيقية، تدافعوا وماتوا.

ها هو العالم يحرمها من الأب بفعل البيروقراطية والإهمال والفن، لكن هل سيكلفها هذا الجنون حياتها نفسها يوما ما مثلما حدث للأب حتى ولو دون قصد أو ترتيب.

كانت من الصنف الذي يؤثر فيه كل الأحداث مهما كانت وتقرأ عنها وتعرف وتحلل أسبابها وتوجه أصابع الاتهام للمجرم وتضعه في خانة الأعداء ولا تنسى ثأرها.

في منزل العم حيث تكسرت القيود، الاستماع إلى أغاني فيروز بلا أي تعليق سخيف ومعانقة التواشيح الأندلسية، من "جادك الغيث" إلى "يا ليل الصب"، عمها كان يشاطرها الإعجاب بمنير والشيخ إمام، التعرف على شخصيات جديدة، الولوج لعالم الأدب بفضل معارف الأب، التفكير في دخول عالم الفن عبر التمثيل، حلم صعب المنال بحثت عن منظم له يدير اللعبة.

محمود الجار البشوش، صديق العم، كانا يتبادلان الحديث والابتسامات والاهتمامات، عرفهما حازمًا على بعض، ووصفه العم بأنه شخص موثوق به لأقصى حدًا ولا داعيًا من الخوف منه على الإطلاق.

في حضرة محمود لا دا ٍع للخوف، ولكن الوضع يختلف تدريجيًا حين يحضر الملقاط، لكنهما منذ البداية لم يتوافقا، اختلاف وجهات النظر، رفض لأسلوب مزاح معين، أو محاولة فرض سيطرة أو توهم إنها سهلة، بالإضافة لسخريته من قرويتها والتي دعتها للاحتداد عليه وأجبرت محمود على التدخل.

وانحصرت شيرين عن جلسات محمود ونائل لكن بعد أن وقرت في قلب الأول، وفشلت معها محاولات صديقه البائسة، التي أجبرها عليه جمالها الفاتن الذي لم يكن بعنجهية نائل سبيل على التصدي له.

كانت الفوارق بينهما شاسعة، على الصعيد المالي، أخبرته يوماً بأن ما ينفق في يومه يكفيها أسبوعين، ما ينفق فقط، دون الحديث عن المصروف الشهري لكل منهما، لم تكن ظروفها تتيح لها رفاهية الراتب الشهري، ولم تكن ظروف نظيره لدى محمود تمنحه الوقت للتدقيق في فكرة كم من المال يكفي لكم من الأيام.

لم تكن فقيرة، ولكنها أرادت أن تخرج تماماً وبالجملة من تحت عباءة الأم، حتى لو احتاجت أن تستدان لأشخاص ليس لها بهم سابق قرابة أو معرفة
وهي ابنة الأصول، وحتى عمها قررت آلا تقترض منه شيئاً ويكفي أنها تعيش في منزله.

دفاع شيرين وثقتها وعدم لجوئها للبكاء أو الصراخ أو حتى التفكير في إنهاء العلاقة كلها عوامل جعلتني أفكر، في نفسي أشياء وأشياء، الدم أربد في وجهي والحنق يأكلني، لكنها ليست متهمة على الإطلاق، إذا ما أرادوا اتهامها لفعلوا، على الأقل ماهيتاب ستنتقم لنفسها ولكبريائها كأنثى وتستفز رجولتي لكنها لم تفعل، الأمر لم يتجاوز التعبيرات الرخيصة.

لكني قررت أن أفعل، سأنتحى تمامًا ونهائيًا عن كتابة هذا التحقيق، جسر الثقة لا بد من توطيده دون تشويهه أو تدميره بأي قوة طموح أو رغبة في إثبات الذات، هذا اتفاق منذ اليوم الأول.

إضافة إلى ذلك كان من حيثيات حكمي أني ببساطة لن أتمكن من سرد كل شيء وأنا طرف في القصة وهذا أمر لم أفكر فيه مطلقًا حين شرعت في بحثي.

لم أتخيل أن شيرين ليست فقط مجرد ممثلة بسيطة ليس لها من الخبرات الكثير وموهبتها في رأي الأغلبية محدودة، لم أدرك أن الراحل ربما استهدفها لكنها استعصت عليه، فأشاد بها وحولها لبطلة كي يقضي وطره منها.

لم أتصور أن هذا العظيم ممكن أن يفكر هكذا، على العموم هذا لم يثبت ولكنه أيضاً لم ينف، ومن ثم فإن هذا الشخص لا يستحق أي أكتب عنه ولو حرف واحد أو أهدر وقتي في تمجيده.

بالطبع فكل ما سيقال وكل ما قيل عنه هو محض إشادات والقصص الناجحة لا تقوم على البطل المعصوم، تكون مملة.. غير مصدقة، نعم يمكنني الآن تحويله إلى عربي „د عجوز نذل خسيس، ولكن.

كيف أثبت اتهاماتي، ستقاضيني زوجته وربما أصدقاؤه وقراءة وجماهيره، إثبات الحقائق لا يأتي بالأحاسيس والمشاعر الغاضبة، وقبل ذلك كيف تتحول مشاعري هكذا فجأة من عاشق متيم إلى عدو لدود، هل أعاني من تطرف في التفكير.

هل أصارح بها الشيطان الملقاط، نائل، الذي أؤمن بأنه يكرهه حتى النخاع، وإن حدث كيف سيستغلها، قد يشوه شيرين التي لا زلت أثق بها إلى أقصى حد، المسألة جد معقدة.

كنت قد اتفقت معه على أن أطالعه بما وصلت إليه، صراحة كان أكثرهم حرصاً على مساعدتي، ولكن بالطبع له غرض، ما هو؟ لا أعلمه.

نائل رغم خبثه لم يلمح لي، لا من قريب أو بعيد، عن وجود شيء بين شيرين والأستاذ، رغم أنه يعمل معها ويعرفها ويعرفه، ولديه مصادر كثير ممن يعملون لدى المرحوم، لكن يبدو أن هذه المسألة استثنائية في غموضها، كلمات شيرين كانت حزينة وصارخة، هي بريئة شعرت وأثق بشعوري، لكن هناك جناية.

فيما يخص نائل فهو بالتأكيد لم يتحول إلى ملائكي مثالي فجأة، لا يريد فضح أستاذه القديم، حتى في صمته هناك سر، وأنا أريد أن أعرفه.

ربما سيصبح في النهاية هو الملاك الناصح، وما الأستاذ ورجاله إلا مجموعة من المدعين الكاذبين، حتى محمود هذا قد يكون كاذباً يرتدي عباءة الفضيلة والأخلاق لممارسة نجاسة مماثلة.

إن الملقاط سيكون وسيلتي لمعرفة الحقيقة لكن بعيدًا عن هذه المذكرات أو البحث أو الشيء الذي لا أعرفه ولن أكمله، ولكن من أجل هذا عليَّ أن أقدم له شيئاً، مقابل، وهو لن يتعبني كثيراً وسيطلبه.

موعد في كوستا

تجاهلت القصة تماماً وعدت لممارسة حياتي بشكل طبيعي، لكن نائل لم يتركني حاول مراراً الوصول إلي، كنت لا أرد على مكالماته، تواصل مع شيرين ليصل إلي، دون أن يخبرها بسبب المقابلة.

أخبرتني أنه جلف حين سألته عن السبب وراء بحثه عني، وطالبها آلا تتدخل في ما لا يعنيها، بالطبع غضبت لها وقررت التحدث بعصبية وإنهاء علاقتي به وبالقصة للأبد ولتكون طريقته المتعجرفة مع شيرين هي ذريعتي الظاهرة لذلك، رغم أن أسلوبه استفزني حقًا.

ولكنه سرعان ما تحدث إليها واعتذر، وهي أخبرتني أيضًا حين جاءت لزيارتي في نفس الليلة، وكان معها في الخارج، مفاجأة لم أتوقعها أن يأتي هذا المليونير المخرج والكاتب الكبير لزيارتي في منزلي، هي تدرك أسلوبه جيدًا،
أكدت لي أن موضوعي يهمه إلى أقصى حد وإنها لم تشاهده بهذه الحالة

منذ أيام الزمن القديم في منزل الجامعة حين كان يسكن مع محمود في البيت المواجه لشقة عمها حازم.

ولكن ما أهميتي وما أهمية قصتي مقارنة بما حققه من نجاحات، هل هكذا يعمل على أفكاره المسروقة؟، وهل قرر تحويلي لضحية جديدة؟

كيف تسرق الأفكار؟ هل حين لا يكون لدى أصحابها الأصليين رغبة في استكمالها؟، أو يكونون غير قادرين، عجزة، العجز النفسي.. عجز الرغبة.. التفريط في الحلم، أما هو فلديه دوماً الشبق والرغبة والاستعداد والمقابل، هو ليس سارق إذن ، ما هي إلا هواجس وافتراضات وربما افتراءات ليس بها من الصواب شيء جالت في ذهني، ولكن هو سيثبتها أو سيثبت شيئًا منها.

أخذنا نائل إلى مقهى كوستا في المهندسين، لكن شيرين اعتذرت عن استكمال الرحلة التي لم تكن تعرف سببها ولم تسألني عنها لارتباطها بموعد آخر مع أختها مي القادمة في رحلة للقاهرة.

أما نائل فلم يعرفه الكثير في المكان، هذه ميزة أن تكون نصفًا مشهورًا، لا يعلم بك إلا قدرًا محدودًا من البشر، حتى لو يعرفون أعمالك واسمك لديهم سائغ شرابه، لكن وجهك غير مألوف، هنا تبقى روحك حرة.

المكان غير صاخب، طلاب من الجامعة والثانوية العامة يذاكرون في هدوء ممزوج بالهمس والقلق والجدية، وهو يرشفون القهوة الممزوجة بالكراميل، أو يتناولون قطعة كيك أو ساندوتشًا، أحاديث جانبية ثنائية، غير مزعجة،

وكأن هناك اتفاقًا مسبقًا، مقاعد صغيرة لكنها مريحة، وطاولات لا تختلف عنها في الحجم أو في تأدية الغرض.

نظر لي بخبث غامض وسألني عن سر توقفي عن الكتابة والبحث في أيام الأستاذ الأخيرة، كان علي أن أبحث عن حجج مناسبة، لا أن ألقي إليه بالمنديل كاملًا كي يكمل هو القصة.

- أسباب شخصية بحتة ولا أريد التحدث فيها.
- شيرين إذن (ابتسم بخبث وهو يرشف الرشفة الأولى) - ماذا تقصد؟
- لا، أنت الذي تقصد شيئاً ما ولا تريد إخباري به.
- لا ليست شيرين، المسألة كلها معقدة، تحتاج لبحث أكبر وطريقة أخرى، ووقت، أنت تعلم الآن ضغوطات، أحضر للزواج، ليس لدي الرفاهية للاستمتاع بهذا البحث، أريد أن أتوقف لفترة، ربما بعدها أعود للكتابة.
- هل تتذكر دعوتي السابقة لمساعدتك؟ - بالطبع.
- لماذا لم تطلبها؟ هل تخشى أن أسرق أفكارك مثلًا؟ (تطلع في وجهي بإبتسامة خبيثة)
- لماذا تقول هذا الأمر كله أن ليس لي فكرة حتى الآن واضحة ؟

للصياغة.

- سأكون أنا مصدرك.

- لم تكن قريباً منه كما قلت لي، ولا تعرف التفاصيل، شيرين ربما لديها معلومات تفوقك، محمود ، ماهيتاب.
- أنت تسرق ما قلته لك في المقابلة الأولى، ولكن هذا ليس صحيحاً.. كنت أكذب عليك، أنا أعرف كل شيء.
- كل شيء مثل ماذا؟
- لا لا لن ألقي لك بأفكاري بهذه السهولة.. لست ساذجا، وأنت تعلم ذلك جيداً.

نجح نائل في إشعال فتيل الرغبة مجدداً داخلي، أريد أن أعرف شيئاً، ويبدو أنه بعيد عني، وعن شيرين، لكن ماذا هو؟، وكيف استفيد منه؟ والأهم كيف أخرج شيرين من الرواية؟، وحين أخرجها، هل أكون أروي الحقيقة كاملة؟ ربما تكون خطيبتي هي سبب سقوطه لو أخفيتها سأخفي كل شيء إذن.

أريد أن اقتحمه ويريد أن يسبر أغواري، هل لاحت في الأفق سيماء اتفاق، هل هو الشخص الذي يستحق أن أثق به، إنها تعمل معه ولا تشكو منه، ولقد حضرت التصوير أكثر من مرة ولم أجده يوماً متصابي أو راغب في المزاح داخل العمل، بالإضافة لثقتي بها، ولمعرفتهما القديمة التي تضع حدوداً، هو لن ينظر لها بعين الأستاذ.

دعاني لمنزله في اليوم التالي، لأنه كان مرتبطاً بموعد عمل، كان حريصاً على آلا يظهر في ثوب اللاهث وراءي رغم أن حديثه واهتمامه كانا فاضحين.

أعد كوبين من القهوة ووضعهما وأشعل سيجارته ونفث دخانها بإستمتاع، ونظر لي وهو يبتسم.

- أريدك أن تخبرني صراحة أرجوك، هل أقلعت عن الفكرة؟! (سؤال تمنى لو كانت إجابتي عليه نعم). - لا فقط توقفت.
- توقفت أم مللت؟ أمر عادي تأتي لنا أفكار ثم ما نلبث نملها.. أمر عادي، يحدث في أي شيء، في الحب والعمل والكتابة واللعب.
- أياً كان ماذا تريد؟ أتريد سرقتي (خرجت مني رغماً عني وشعرت أنه أسقط في يدي)، لكنه ابتسم وأكمل تناول قهوته مع السيجارة.
- هذا الكلام تعلمته على يد المختار ، حسناً أنا لست لصاً.
- لم أقصد اعتذر بصدق حقيقي .

نائل إلى الآن الوحيد الذي فتح لي ذراعيه، نعم له هدف، لكنه سيساعدني، وهدفي وهدفه الوصول إلى لب الحقيقة، وهذا حق مشروع خاصة إذا ما كانت خطيبتي طرفاً.

- لا انظر، أنا لن أسرقك ولم أسرق أحد لم أفعلها والقضاء أثبت هذا مرتين أني لم أكن لصاً (قالها بنظرة خبيث كاذب)، اعتقد أنك تعلم. - إذن ماذا تريد؟ هل شيء غير كتابة روايتي بإسمك؟
- نعم مشاركتك فيها أنت معك الفكرة، لكن أنا معي وسائل التنفيذ، والمصادر، والخبرة والمعرفة أنا جزء من معلومات كثيرة أنت لا تعرفها، أنا أحد أبطال الرواية، الذي يعرف دوافع أبطالها. - دورك لا يزيد عن كونك مصدر من ضمن مصادر.

- لكني مصدر سيصدقك، ولن أكذب عليك، وسأعمل بكل ما في وسعي، وأيضاً تذكر أنا أكثر شهرة ومعرفة ووجودي سيزيد من صيت الرواية والصخب والجدل، وكلها عوامل تسويقية مهمة، لكن في النهاية اسمك سيقترن بإسمي معاً، وستبقى أنت صاحب الفكرة الرئيسي وراوي الجزء الأول.
- هل هذا جزاء أني قلت لك عن الفكرة وكشفت لك عن طريقة عملي؟
- هو اتفاق gentlemen الأمر يستدعي موافقة الطرفين، ولا أشعر أنك حريص على فكرتك لهذا الحد.
- أريد أن أخبرك بشيء لم يعد لدي نفس الشغف الكبير مثلما كان الوضع في البداية لكن لا يحق لك أن تأخذ فكرتي وتنسبها لنفسك أو حتى تشاركني فيها.
- لماذا لا تقول سأمنحها الحياة أنت أنجبتها وأنا سأكون المتكفل برعايتها، كي لا تضيق ذرعًا بحملها ثم تلقيها لغياهب النسيان ولا يستفيد أحداً إلا من أرادوا الكذب عليك، إن طريقتك وأسلوبك ينمان عن الزهد، حقك أن تزهد وحقي أن أرغب فيما زهدت، الحياة هكذا يا صديقي، تبور السلع لو لم تزهد أخرى.

توخيت الصمت للحظات، قتلني شعوران، أولهما رغبة في التخلص من حمل الشك وثانيهما رغبة في الوصول للحقيقة، وثالثهما إقلاع حقيقي عن هذه الحدوتة الحزينة.

أوقف نائل الصمت وبدأ يقذف طلقاته بسرعة ودقة شديدين نحوي وهو يدرك كيف يصيب الهدف.

- بالإضافة إلى أنك تنسى أمراً غاية في الأهمية. - ما هو؟

(قلتها وعلى وجهي ملامح تملل)

- أنت تكتب قصة عن حياة شخصية لشخص مشهور، وبحاجة إذًا لموافقات عدد أطراف والعديد من الأمور القانونية، وبما عرفته فإن ماهيتاب لم تطيق مقابلتك من الأساس كي تمنحك موافقتها القانونية على أيامه أن تكشف عن أسرار حياتها الشخصية مع زوجها في الأخيرة.
- هل هذا الباب الأخير الذي كنت ستفتحه لي إذا ما ضاقت بي الأبواب؟
- يوجد بابًا أفضل؟ (بدأت لهجته في التغير، وعادت العجرفة وهل لتلطخها من جديد) على العموم لك الحق في تقرير مصير روايتك وعرضي مفتوح لك حتى النهاية، صدقني إذا قلت لك أن هناك اتفاقيات في التاريخ أغرب من هذه بكثير.
- ولماذا لا تأخذ الفكرة وتعيد صياغتها دون إذن مني وأنت معك كل المصادر وجزء من المعلومات كما تقول؟، وكما تعلم الأفكار ملقاة على قارعة الطريق.
- فكرتك لم تقتني لكن أريد أن أفضح حقيقته.. هذا البقرة المقدسة، لا أقصد إهانته رحمه الله، ولكن أعني التشبيه فقط.. هو لا يستحق أن أكتب شيء كامل عنه من الألف إلى الياء.
- يتضح لي أنك تكرهه كيف تكتب، عن شخص أنت لا تحبه.

انفجر ضاحكًا ثم أشعل سيجارة ثانية وزفر دخانها واسترسل مستمتعاً:

- يبدو لي أنك بدأت توافق على الفكرة.. انظر في الصحافة الرياضية في الزمن الماضي أيام الصحافة الورقية، ربما لا يزالون يفعلوا هذا حتى الآن، لقد تركت المجال منذ فترة كنت صحفياً هل تعلم؟
- نعم.
- كان رؤوساء الأقسام الرياضية يرسلون الصحفي الأهلاوي لتغطية أخبار الزمالك والعكس بالعكس، كانوا يستغلون كرهه وبغضه للخصم كي يفضح كل ما يراه في النادي، ربما هذا لم يعد موجوداً الآن، وغطت أفكار أخرى ليس لها علاقة بالإنتماء أو عدمه، أمور مثل المصلحة أو الأهداف، أو ما عواقب الذي سأفعله لو فضحت هذا أو ذاك، عواقب الحقيقة، لكن ما أردت قوله أن أفضل شيء تقوم به كي تعرف الحقيقة أن تكلف الخصم بالكتابة عنه، لن يكذب.
- محمود قال لي أنك تكتشف الأشياء البغيضة في البشر في كتاباتك وتبحث عنها ليبدو كل أبطال كمجموعة الحمقى، الخصم من سيكشف الحقيقة وقد يضيف عليها بالكذب أمور ليست فيها ليشوه السمعة.
- السمعة!! ماذا تعني بهذه الكلمة تحديداً، هل لديك معلومة تخص سمعة المختار؟
- لا أنا أتحدث في المطلق، (اقتحمتني نظراته التي تفضح كذبي ولا تريد أن تثقل علي بالأسئلة كي لا يخسرني)
- وماذا تريد أن أصبح مثل محمود، أقرأ في البشر وجوههم الملائكية حتى ولو كانوا نسوانجية وبلا مبادىء أو شرف. - أنا موافق.

أشهد أنه كان خبيثًا وكاذبًا ويلقي بالكلمة يعرف أثرها في نفسي، ولكني لم يكن بوسعي تكذيب نواياه، طالما سيصل بي إلى الحقيقة، أما محمود صديقه القديم وصديق شيرين الذي تثق به لأقصى حد، ولم تتكر عني يوماً

أنهما تبادلا مشاعر ما لبثت أن تبخرت سريعاً، فأنا لا أفهمه على الإطلاق،

هو إما يدرك كل شيء أو لا يعرف أي شيء، لا يهم، ما يبقي له مساحة عندي ثقتها به.

وكأنه يقرأ ما بنفسي، ولا أدرك ما في نفسه باغتني مسرعاً:

- لماذا بهذه السرعة؟ توقعت على الأقل أنك ستسأل محمود.
- لا لست بحاجة لسؤال أي شخص، بالذات محمود، ولا تسألني لماذا، ببساطة لا تعتبرني مصدراً للمعلومات.

نعم، توقفت عن الكتابة سيروي الملقاط القصة، هل كان المختار جانياً أم مجني عليه؟، وحين سقط من الذي أطفأ وهجه وكيف؟.. والأهم لماذا؟..

كان علي أن اعترف أنه سيقوم بهذه المهمة بصورة أفضل مني، لا مجال للتعالي على الحقيقة.

اتفقت مع نائل على أن يروي لي كل التفاصيل والمستجدات أولًا بأول، المصادر والفكرة وكل ما يكتبه، كان منفتحاً حتى النهاية، وبنبل حقيقي قرر

وضع اسمي في المقدمة قبله، ربما فخ ضد الآلاعيب القضائية، لكني

بصراحة لم أعد أنظر إليه النظرة القديمة، وبصورة أصدق لم أعد أصدق كل ما يقوله أصدقاء المختار، من أجل أن يظهروه في ثوب الملاك الطاهر.

لم يفيدني حديثي الحالم مع محمود أو مقابلة ماهيتاب البغيضة أو حتى الأستاذ شكري، كل ما قالوه كان إما تلميحات أو إشارات غير واضحة، أرادوا إخفاء شيئاً ما، وهذا يؤكد لي أنه لم يكن بريئاً، أضف إلى ذلك حديث شيرين الغامض، وشعوري إنها بنبل لا تريد فضح الميت.

سارت الأمور على ما يرام بيني وبين شيرين، حاولت مراراً أن أعيد صياغتي أسئلتي لها عن أزمتها مع المختار أو سر توقفها عن العمل معه، لكنها أصرت على أن تفي بوعد مع راحل ولا تخبرني أو أي شخص بشيء من هذه القصة.

كان علي احترام هذا الأمر، كان بإمكانها أن تتنازل، هي ممثلة جميلة صاعدة تبحث عن فرصة، وهو نجم ملء السمع والبصر، وهذه الأمور تتم في الخفاء، لم يكن أحد سيشك، أنا خطيبها من عشاقه، كان يمكنها بكل سهولة أن تحولني لمحفوظ عبد الدائم جديد.

****

هنا يروي الملقاط؟

كان ضروريًا بالنسبة لي أن أفسر قراري بالاشتراك فقط، وليس تحمل عاتق المشروع من بابه، في الكتابة عن أيام المختار الأخيرة، كيفية تحوله من النقيض إلى النقيض، مجرد رأي شخص يدرك جيداً كيف يسبر أغوار البشر.

عرفته عن قرب، لكن هناك اختلاف في علاقتي معه عن الآخرين، بدأت العلاقة بإعجاب شاب مراهق في مرحلة الثانوية العامة، أو قل قبلها، بذكرى ما شاهدت له من أفلام في فترات الطفولة، كان لديه مفتاحاً سحرياً ينفذ للروح.

ولكن ما لبثت أن تحولت الصداقة إلى خصومة، والإعجاب إلى إنكار، والرغبة في التودد والدنو لقرار بالخروج من دائرة لا تشبهني.

لم تعجبني روحه، وفررت من دائرته مرفوع الرأس، عاقد العزم على تجاوزه، وخلق عالمي الخاص، أفكاره لم تقنعني أو تقتحمني، اختلفنا في

الرأي، في كيفية تناول الشخصيات ودوافعهم وقراءاتهم، تلك القراءة التي أوقن أني على صواب فيها، ومنها رؤيتي للمختار نفسه.

شربنا كأس الخلاف بعد ود، والعداء في أعقاب عيش وملح، ركضنا إلى ساحات القضاء وأيضاً كنت أنا المنتصر، لم أسمح لأحد يوماً بتجاوز خطوطه الحمراء معي، وحين توهم الأستاذ المبجل هذا الأمر، رددت له الصفعة، بل أن يدي لم تتوقف حتى الآن عن الهبوط على روحه بالطعنات التي يستحقها.

لمحمود صديقي القديم، وتلميذ الأستاذ وأحد مريديه، مقولة قديمة "الفائزون رسمياً ليسوا دائماً على صواب"، وفي عالم يغيب فيه العدل فإن هذه المقولة تتعشق بالكثير من الصواب..

إلا أن صعودًا نجميًا في وقت أفول نجم الأستاذ، كما يفضل عشاقه تسميته، لم يكن بسبب غياب العدالة في كيفية توزيع الأفلام دور العرض السينمائي، أو استسهال جهات الإنتاج، أو انعدام الذوق العام كما يروجون لهذه الرواية بل ويؤمنون بها حتى النخاع.

يكمن الأمر ببساطة في فهم البشر، تباين فهم الشخصيات يؤدي بطبيعة الحال إلى اختلاف التناول، وهو ما يؤدي إلى اختلاف النتيجة، ولو تم وضع عوامل محددة لقراءة الأشخاص وردود أفعالهم وكانت تلك العوامل خاطئة

من الأساس فإن النتيجة ستكون الفشل، الأشخاص هنا ليسوا فقط الأبطال بل الجماهير المتلقية، في الرواية أو السينما أو التلفزيون.

ولكني هنا لست لتحليل فشل الأستاذ في أيامه الأخيرة، لأن الفشل لم يكن يوماً يعيقه عن السعادة والاستمتاع بالحياة، ذلك المستمتع العظيم، الذي وصفني يوماً بأني "كاذب لا أفهم قراءة البشر بشكل صحيح ولا أبحث إلا عن تشويههم"، لن أسامحه حياً أو ميتاً."

ومن خلال رؤيتي للمختار نفسه سأروي القصة كيف بدأت والصورة لماذا انهارت بشكل تدريجي وطمست، ومبكراً، قبل صديقي العزيز، لأني تفهمته بشكل إنساني بينما وضعه مريديه في مصاف الملائكة المعصومين، بتلك الطريقة التي يصنع بها آلهة البشر.

ويكفيني الآن أني في حل عن دخول منافسة مع رجل قد رحل، لكن ما يعنيني حقاً إثبات رأيي، الذي لن يؤثر على مكانتي، أو ينتقص منه، هي فقط محاولة إزالة رتوش وغبار وترميم صورة قديمة.

ومن ثم فإن اشتراكي مع سمير في كتابة أيام الأستاذ الصعبة، لم يكن من أجل شهرة أو ذياع صيت، وهي أمور لا تتقصني، المسألة كلها أني أردت كشف الرجل بشكل إنساني بما لدي من معلومات ومصادر وذكريات وقراءة لأفعاله.

لا أرى البشر جناة وملائكة، ولكنها لعبة المصلحة، الشيء مقابل مقابل، وإذا ما امتلكت المقابل يمكنك أن تطلب كما تريد، خاصة إذا كنت تعرف نقاط القوة والضعف في الطرف الآخر.

منذ صباي كنت أتفوق على نظرائي في امتلاك المال، وهي ميزة فاضحة وكاشفة، بالمال يمكنك شراء أي شخص، إلا ما رحم ربي، أنت تمتلك سلاحاً

يفضح نقص الطرف الآخر، بالمال تبذل مجهوداً أقل، وتذاكر أقل، وألعب أكثر، وأفوز أكثر ويتوددون لي.

ولم تختلف اللعبة كثيراً في المراحل التالية من حياتي، بل كانت الأمور أيسر وأكثر فضحاً للآخرين، فتح لي المال باباً عن قراءة البشر، ربما وصفني البعض بأني أعشق التحقير والتقليل من الآخرين وإزدرائهم، لكن اللعبة التي مارستها منذ الصغر برهنت لي صواب رؤياي، فلماذا أزهد فيها وهي تمنحني كل ما أريد.

إن ما مارسته بعدها في مراحل التعرف على الجنس البشري في الكلية وفي العمل، من الصحافة لكتابة السيناريو والإخراج، أكدوا لي ما كنت مقتنعاً به.

محمود من القلائل الذي رفضوا يوماً ما اقتراض أي مليم مني، حدث ذلك بسبب خلاف نشب بيننا، حين دفعت عنه حصته في إيجار المسكن الذي كنا نعيش به أثناء الدراسة، وذلك أثناء تأخره في الحضور من المنصورة وطلب صاحب العمارة للإيجار الشهري، لا أنكر أن مبادرتي رفضي استرداد النقود حاولت بها قراءته بصورة أكثر وضوحاً وتدقيقاً، على طريقتي التي أعيها جيداً وأتفهمها.

ربط محمود بين هذا الرفض وبين زيادة طلباتي الشخصية له بإعداد الشاي والقهوة، رغم أني لم أكن أربط بين الأمرين، لا اعتقد أني كنت أفكر هكذا، إلا أن سمة شيء داخلي بي يقول لي هو مدين لك، لا يكشفها العقل الباطن صراحة، وتفضحه تصرفاتي، صنفني منذ ذلك الحين ووضعني في

إطار من يشتري الناس بأمواله ثم يحتقرهم، كان حاداً ويبدو أنه لم يتغير حتى كتابة هذه السطور لكن لن أتركه.

عامة لم يؤثر هذا على طريقتي في التعامل مع البشر، لم يكن محمود إلا استثناء، وعلاقتنا لم تتأثر بل شابها شيء من التكافؤ الذي كنت افتقده في كثير من علاقاتي الشخصية مع الزملاء والأصدقاء، وأقر بأن فكرة الشخص غير المستغل قد أعجبتني فيه، وبدأت البحث عن أشباهه في الآخرين كثيراً ربما لأغير رأيي، لكنه كان من الفصيلة النادرة.

الندرة هنا في كل شيء، حتى في الفهم الجيد للبشر، لو جلست معه ومع عشرة آخرين وحدث موقف سنفسره كلنا بطريقة واحدة لكنه سيشذ باختلاق أعذار للمجرم وتحليل لماذا ارتكب كذا وكذا، وهذا عيب بغيض لم يتخلص منه.

حدثت مناوشات عديدة بيننا، اختلفنا على قراءة البشر، في إحدى المرات أحضر لي فتاة، جارة لنا في السكن من أجل المبيت لليلة، ولو كنت أنا من فعلها لرماني بكل رديء وجعلني المجرم النذل الذي لا يحترم حرمة البيوت ولا يدرك معنى الأخلاق والأصول، كأننا لم نأت معاً من قرى محافظة لها تقاليدها وأخلاقياتها.

وحتى موقف استضافة الفتاة، تحول بسبب فعل غبي مني، وأقر أني في هذا الموقف لم أتفهم البشر بالطريقة كنت أتخيل، إلى وثيقة ضدي له أن يستخدمها متى يشاء، لكن ما هذا الموقف الذي لا أحبذ سرده الآن، إلا استثناء في قاعدة فهم البشر.

حين فهم المختار البشر بالشكل الصحيح كتب روايته التي حولها لاحقاً إلى فيلم ذاع صيته، "جئت وحدي" وتم تحويلها إلى فيلم من إخراجه في صيف 1989، تناول الفيلم قصة أحد الضباط المتغطرسين والطرق السادية التي كان يستخدمها للتحقيق مع الجناة أو إجبارهم على الاعتراف بأشياء وجرائم لم يرتكبوها، بل وساديته حتى في علاقته بزوجته وأقاربه وجيرانه وكل المقربين منه، الفئة التي يفترض أن الإنسان لا يرتدي أمامها أي رداء غير روحه الحقيقة.

لكن هذه الرواية التي كانت من أجمل وأنجح ما قدم الأستاذ، في رأيي، ظهرت للنور بسبب مشادة بين شخص متعجرف مع المختار أثناء تصوير أحد المشاهد في فيلم آخر.

وقتها أصر هذا الشخص على أخذ الروائي الكبير إلى القسم وكتابة محضر ضده، مستخدما نفوذه وسلطاته، شيء من الكرامة الخالصة النادرة، الكارهة للخضوع والانحناء، جعل المختار يدخل معه في مشادة ويفضحه، مستغلًا أنه أيضاً يعرف الكثير من أصحاب النفوذ، حتى وإن كان لم يستهدف يوماً الاستفادة منه، وها أنا الآن بمآثر وأفضال الفقيد العظيم.

ولأنه كان شخصاً عرفه عن قرب، لأنه ببساطة أدرك الجانب الحقيقي فيه، وجهه الذي يظهر عند الخلافات، نجح المختار في رسم الجزء القبيح منه بشكل مثالي، طبيعة حالته النفسية غير المتزنة وسعيه الدائم للظهور في مظهر الشخص القوي أمام الناس، الأشر المتعالي على البشر، كان هو إحدي ضحايا هذا التعالي.

وحتى في الحب، كان شخصاً متعجرفاً، أراد امتلاك فتاة عشرينية رقيقة حسناء، في بدايات العقد الثالث، تزوجها بعد أن ظهر لها في رداء الرجل الرومانسي العاشق، القادر على تلبية كل مطالبها البسيطة لكنه في النهاية لم يقرأ شخصيتها بشكل حقيقي فثارت عليه.

وحين ذهب عنه النفوذ، بدأت أوراق التوت في السقوط واحدة تلو أخرى، ولم يكن هناك بد من السقوط، خاصة بعد أن ذهبت الهيبة وضاع النفوذ مثلما يحدث مع أي طاغية غبي.

لقد قرأ المختار في هذه القصة البشر بشكل مثالي، البشر الذي أعرفهم، البشر الحقيقيين، وصور كيف كانوا يتذللون لصاحب السلطة كالجرذان الخانعة، ثم ثاروا عليه بعد أن انقضى عهد القوة وسقط الكرباج من بين يديه.

هذه الرواية تحولت إلى فيلم "الطريق للمستحيل" الذي عرفت محمود عليه وبات المختار هو أحد محاور حواراتنا لأسابيع وأشهر، بل وبتنا نستمع لحواراته التلفزيونية بشكل دائم ونتسابق على قراءة رواياته.

****

معرض الكتاب - العقد الثاني من الألفية الثالثة

شمس حارقة رغم أننا في يناير، ولعب أطفال وهدايا رغم أننا في معرض للكتب، تحتاج للسير وسط زحام والاصطفاف في طوابير طويلة كي تصل لضالتك، التي لا تعرفها في الأغلب، أنت طالب جامعي جئت لتبحث عن شيء يمتعك ويغذي غريزة البحث، معلومات مهمة لكن لا تدري في أي مجال وما هو أفضل درب للوصول.

كنا نتجاوز الزحام صوب الأماكن الخالية نبحث عن مكان لشرب القهوة واستنشاق دخان السجائر، ونتحضر للبحث في الأجنحة التي تقدم أعمال كتابنا المفضلين، لمحت إعلاناً عن ندوة للأستاذ مختار، ستعقد في الثامنة مساء، لا يزال أمامنا 6 ساعات كاملة، لم أكن أنوي الحضور ولم أفكر أن أنتظر.

لكن محمود أصر على بقاءي، اتفقنا على تسوية، سأبقى معه حتى السادسة ثم انطلق، شعلة الانبهار بالأشخاص لم تشتعل جذوتها يوماً ما في صدري، على عكس صديقي الذي حاول البحث في المختار عن الكثير.

مات شقيقه الأكبر ومربيه قبل 3 أعوام، أبيه الحقيقي بعد وفاة والده وهو في الخامسة، ومن يومها بات زاهداً، يقرأ.. يذاكر .. يبحث .. لكنه لا يفرح بأي شيء إلا قليلًا، ولا يحزن إلا بقدر.

قتل أخيه في ثورة 25 يناير، لم يكن يدري هل يتفاخر بهذا الأمر أم لا، كل من كانوا حوله تفاخروا بالأمر في البداية، ثم ما لبث أن تحول الفخر إلى رسائل خبيثة حول أهمية الثورة وعدم حتمية النزول، كأنك تعاقب إنسان على موته من أجل هدف نبيل، كل هذه الاتهامات كانت تقتله بسكين بارد،

وتحوله لشخص لا مبا „ل بأي شيء، رحل من رحل وعاش من عاش، ولدت أحلامًا أو وئدت، زيجات، انفصالات، تلك الحياة بطموحاتها وانكساراتها ونجاحاتها مرحلة مؤقتة.

الأستاذ اختلف عن البقية، ثائرًا بطبيعته، روحه مختلفة، على العادات والمجتمع والمتحكمين فيه، بالإضافة إلى أنه مبدع حقيقي وأب حنون رغم أنه يبدو دومًا أصغر من سنه بسبب الروح الطائرة، التي سقطت في النهاية بين يدي ماهيتاب.

لكن أكثر ما كرهته في محمود هو جموده وصعوبة تغيير أفكاره، أو تصوراته لدى شخص ما، أو توهم الملائكية في البشر على الأقل بقدر معين، رغم أني أؤمن أحياناً أنه فقد يوماً ما هذا الانبهار لكنه رفض الاعتراف لي بذلك، كي لا يظهر في ثوب خاسر المعركة الوجودية، من أفضل أنا أم أستاذه؟، فكرته أم فكرتي؟

لم ألتزم بالتسوية التي أبرمتها مع محمود، بسبب حادث مفاجىء إبان دخولنا أحد أجنحة المعرض التي كانت تعرض إنتاج دار نشر تقدم أعمالًا روائية وتاريخية، وهنا وجدنا الأستاذ مختار بشحمه ولحمه، وسط مجموعة من مريديه، لم يقدم شيئًا تاريخيًا يوماً، بإستثناء فيلم إنساني عن فترة ما قبل ثورة 1952.

تحينت الفرصة ونجحت في تبادل أطراف الحديث معه بإشادة ماكرة ونفاق صادق عن فنه وأفلامه وكتاباته، محمود كان مأخوذاً أغلب الوقت، لطمت الحمرة وجهه وجهه ودق قلبه بضربات سريعة، وتحكمت أنا في دفة

الحوار، رغم أن صديقي أتى لرؤيته ومقابلته لكنه لم يتوقع حدوث الأمر بهذه السهولة، دون تحضير لما يجب أن يقال.

لكن بمرور الدقائق ما عاد إلى الأرض وذكره بحضوره لندوة له في الجامعة، وتفاصيل ما قاله المختار، حديثه عن تعدد الزيجات، ورفضه الرأي السائد
بإتهام الرجال بالبحث عن المتعة، أسعدتني تلك الجلسة، وقتها لم أكن
قابلت هذا النموذج من قبل، كلما قل عمرك زادت دهشتك، الدهشة تعني المتعة السارة غير المتوقعة..

لاحظت أن المختار يرتبك بشدة إذا ما قررت مفاجئته، وتفهمت لاحقاً أن هذا حق شرعي، لم أكن منحته إياه وقتها، لكل شخص هؤلاء النجوم، الذين هم في النهاية بشراً، يلتقي أحداً من رواده أو جماهيره، يعرف عنه الكثير ولا
يعرف كيف سيضربه بكلمة حب أم بعبارة ذم، ليس له قبيل بردها، أو وسيلة.

- لي ملاحظات يا أستاذنا هل لي أن أخبرك بها، أم ترفض (ألقيت سؤالي بأدب قردة مصطنع ولم تكن تعوذه الفطنة للفهم).
- لست ديكتاتورا بالطبع (قالها وهو يضحك) لكن هذا ليس مجاله الآن، انتظر حتى موعد الندوة.
- لدي موعد لا أريد أن أخلفه، ولم يكن لدي علم بموعد الندوة.
- ما هي ملاحظاتك يا سيدي (قالها بمزيج من التملل والضيق مع ابتسامة تمثيلية).
- لماذا لا تهتم بنجاح أعمالك؟ هل أعتبر هذا تحقيرًا للمتلقي؟.

- أعوذ بالله (صرخ بحرقة كي يجبرني على تصديق ما يلي) لا الأمر ليس هكذا، في مهنتنا النجاح هو أهم شيء كي تستمر وتنفذ ما تريد القيام
به، في الرواية يمكنك كتابة ما تريد، لكن عند صناعة فيلم يكون النجاح حتمياً وإلا فلن يراهن عليك المنتج مجدداً.
- إذن لماذا لا تبحث عن النجاح، لا تقل لي الجودة والفكر والذوق العام لن يتقبلهم، هناك أعمال كثيرة نجحت في التمثيل والإخراج والتمثيل والأداء والكتابة وقبل كل هذا لاقت قبولًا جماهيرياً.
- السؤال ليس سهلًا كما تعتقد، أنا أكتب عن أشياء أحبها وأخاطب روح الجماهير تستهويني حالات معينة وروح وفكرة أركض وراءها، ربما لا تعجبك ولا تعجب الأغلبية لكنها تحظى برضاي، هي روح وتجربة وبشر خاصين بي، وهذا أهم شيء، ليس غروراً على المتفرج، لكن إرضاءاً لنفسي أولًا، لا يمكنني تقديم فكرة تحلو للجماهير قبل أن تحلو لي، ولا أؤمن أن هناك صيغة واحدة للنجاح، أما تلك العوامل الرتيبة لتوليفة النجاح فلا تعنيني بشيء ولا أعول عليها..

أحببت حديثي مع المختار، أحببت صدقه وانفتاحه، والأكثر الحديث كند لند وليس كعاشق أو معجب مع فنان كبير، هذا شيء أمقته، سميه تعالي،
غرور، لا يعنيني لكني هكذا، منذ الصغر، ربما الأمر ارتبط بطريقة التربية وطريقة التعاطي مع البشر..

حاولت أنا ومحمود دعوته للعشاء في وسط البلد، كان الأمر سيكلفنا الكثير، خاصة أننا لم نكن نعلم هل سيأتي بمفرده أم بصحبة، لكنه أراحنا من هذه المحنة الجميلة واعتذر مازحاً، بسبب "موعد نسائي".

تطورت العلاقة على عكس ما توقعت في تلك الليلة بيننا وبينه، إلا أن محمود ظل أحرص مني على جعل جدوله شاغراً لمواعيد الأستاذ، لكن ما تفهمته أن العلاقة تطورت بشكل إنساني أكثر منه فني على عكس ما أردت أنا، أو على عكس الطبيعي في تلك الحالات.

ومن ثم ظل محمود دوماً يتتلمذ على يديه وأنا أحاول الارتواء من مناهل أخرى، وأشاهد الدنيا من منظور جماهير غير جماهير الأستاذ وأشرحها في أعين أبطال غير من يقدمهم، لا يدينون بما يقدم ويكفرون بفشله التجاري.

سألت سيناريست كبير في بداياتي، أصغر من الأستاذ بعقدين أو ثلاثة، عن سر عدم تعاونه معه، رغم الإطراء الدائم منه عليه، خاصة أنه كاتب سيناريو
والأستاذ مخرج لامع، يشترك الاثنان في بعض الرؤى الثقافية والفنية والسياسية، وهو دائم الإشادة بفنه، لكن رده كان واضحاً ودلني على الطريق، وكان هذا نص الرسالة التي بعثها لي عبر "فيسبوك".

"اختلاف الأجيال يجعل من الصعب لي أن أعمل معه.. فضلت العمل مع كتاب من نفس جيلي، لدينا نفس التجربة، بالإضافة إلى أن الأستاذ يحب العمل على أفكاره هو ولا يترك المجال بسهولة للكاتب، يكون هو صاحب الكلمة الأخيرة، وبالمناسبة هذا ليس تقليلًا منه على الإطلاق، كل ما في الأمر هو يحب فكرته حتى النخاع، ويرويها بالشكل الذي يروق له ومن الصعب أن أفرض رأيي وفكري عليه، هذا كل ما في الأمر".

أدركت كذلك وقتها السر وراء عدم إعجابي بأي عمل للمختار لم يشاركه فيه أحد من نفس جيله، وتحديداً الأعمال الأخيرة، خاصة في مرحلة لاحقة، حين ارتبط بزوجته الحسناء ماهيتاب..

حضرنا العديد من الندوات وتناولنا معه أشهى الأطعمة، واستقبلناه في بيتنا، وفي شوارع وسط القاهرة، ودعانا إلى مطاعم فاخرة في مصر الجديدة والمهندسين، تحولنا لمريدين رسميين، لا أستثني نفسي وقتها، لكني لم أتحمل كثيراً.

كنت أنا ومحمود ننشر بعض القصص القصيرة، والتي لم تتجاوز كونها تدوين لمواقف بسيطة مرت بنا وحاولنا تحويلها إلى أدب، حدث ذلك عبر مدونات الإنترنت، في غمرة آلق وزهو هذه الظاهرة في العقد الأول من الألفية
الثالثة، وقت النقاشات الحرة بدون أي قيود، الاستمتاع بعرض الأفكار
وتعليقات ما بين الإشادة والنقد المهذب، لم نكن مهووسين بأنفسنا ولم نؤمن أننا كتاب عظماء، لكننا أخذنا ثقة من أبناء جيلنا.

اقترح محمود عرض أحد قصصه على الأستاذ، عنوانها "السيدة العجوز"، وشجعته على فعل ذلك، قبلها كان صديقي العزيز قد نشر قصة قصيرة في مجلة "فن النقد" بعد مقابلة مع الشاعر أمير سالم.

أعاد محمود كتابة القصة القصيرة وحاول إعطاء أبطالها عمقاً أكبر، لكن
القصة افتقدت للصراع لأنه حاول طوال الوقت إظهار الجميع على إنهم
ضحايا وهو أمر ضد منطق الحياة، لكنه ارتبط أكثر بطبيعته الساذجة، وتأثره بفكرة الحالة الجماعية بدلًا من التجربة الفردية الإنسانية.

قررت أن أغير الفكرة الرئيسية وأعيد طرحها على الأستاذ ووافقني محمود على مضض، واستعنت برأي أختي سلوى التي أكدت أن الأمر طبيعي ولا يعتبر سرقة، لأنها تؤمن كما أؤمن أن الأفكار للجميع، وعلى هذا ينص القانون أيضاً.

وبهت محمود عندما أدلت سلوى برأيها خاصة أنه اتهمني باللصوصية وأتى بأختي الباسمة الرقيقة الحنون، متوهماً أنها لن تتطق بغير العدل وتزج بي إلى غياهب الصمت المحرج، ولم يكن يعلم إنه لو عرفها عن قرب لجن منها أكثر مما يجن مني بكثير.

رسمت كما تعودت الجزء القبيح من البشر كي أخلق الصراع بينما اكتفى محمود بسرد أسباب الضعف دون خلق الصراع، أعمال المختار بشكل عام منذ بداياته وحتى النهاية قدمت الأشخاص الذين رسمهم محمود كثيراً وبالطبع كان هذا أحد عوامل انجذابه للمختار، ولكن الغالبية العظمى من هذه الأعمال وبشهادة التاريخ لم تنجح ولم تقنعني يوماً.

عرضنا الفكرتين على الأستاذ وسط تجهم وسخط من محمود وأعجبت فكرته الأستاذ بينما وصف رسمي للشخصيات بالمجحف والسطحي، والتجاري!

أثارتني كلماته لكني لم أغضب، بل إني مازحته قائلًا إنها "فكرة محمود" ولم أحاول إلا تجويدها بالطريقة التي أرى، على الجهة المقابلة بدا لو كان قد طور فكرة غير صحيحة عما أكتب، ربما ساعد رأي صديقي في شخصي وشخصيات كتاباتي وجهة النظر تلك، ربما.

أخذ المختار مني موقفاً، وضعني في مصاف الكتاب الذين لا يجيدون قراءة البشر، ومن حسن ظني به آنذاك، أو قل سذاجتي، لم أتخيل إمكانية أن يصفعني بنقد حاد أمام مجموعة تزيد عن 20 شخصاً، وذلك حين سألني عن رأيه فيلمه الجديد، فقمت بتحليل بعض الأمور، بأسلوب صريح وناقد، ليرد علي بشكل مباغت وبمقت حقيقي، يشوبه ازدراء مجحف، لم أدر سببه.

- أنت كاذب لست حقيقياً

(هنا أربد وجهي، وانفجرت وكتبت نهاية علاقتي به إلى الأبد أو هكذا تصورت حينها) :

- غير مسموح لك أن تتحدث معي هكذا أو أن تخطئ وإن كنت لا تقبل رأي شخص في غرفة بها عشرين شخص، فصل في مدرسة، فأنت بالطبع لا يهمك آراء الملايين ممن يرفضون أعمالك الأفلام والروايات، يبدو أنك تخيلت أني مثلهم من مريديك، لا لست أنا هذا الرجل، غير مسموح لك أو لأي شخص أن يحدثني هكذا.

وتركت الجلسة التي استضافها منزله وخرجت من بيت المختار ولم أدخله حتى رقد في قبره.

ركض خلفي محمود وحاول تهدئتي، لكن نيران حنقي كان يستحيل إخمادها، ما أغضبني ثقتي به وانبهاري القديم وحرصي على الاستماع إليه، ثم تلقي صدمة الإهانة، التي توعدت بردها يوماً ما وقد كان.

فتيل الاشتياط من المختار ضرم في محمود، تعاركت معه بالكلمات وحذرته تحذيراً ثبت صوابه لاحقاً، قلت له، لا تفرح بما يقول لك واحذر أن تسجن في ظله وأفكاره وروحه القديمة وزمنه الذي ولى.

رفض محمود أسلوبي الحاد خاصة أنه لم يكن طرفاً في القصة، رغم ثقتي بأن رأي المختار نفس رأيه، ولكنه لم يعبر عنه صراحة وإن عبر فلن يكون
بهذا الشكل الاستعراضي المهين، تسببت هذا الموقف السخيف في ابتعادنا لفترة لكن سرعان ما عادت الأمور لمجاريها بعد أسبوعين حين باغتني بعزومة بكيلو كباب ومجموعة حلويات شرقية تزن 1 كيلوجراماً، ولم نستعرض يومها أي شيء عن العجوز.

لا أدري هل فكر محمود في كلماتي وعقلها أم لا، لكن ما ثبت لي بعد سنوات أن هذا لم يحدث، لم أر شيئاً يجعلني أشك في هذا، لم يتأثر بما قلت حتى لدغه شر المختار.

إلا أني تيقنت منذ البداية، وشاهدت في وشاهد تلسكوب عقلي، أن محمود سيقرر في لحظة ما أن يضع المختار في خانة العدو الرجيم، تأخر الموعد ولكن درايتي بنفسيات البشر لم تتأخر يوما عن إدراك ما تضمره النفوس.

حبي للأدب والسينما، وعدم رغبتي في الارتباط وعدم العوز أو الحاجة، ورغبة ملحة في التفوق على العجوز القبيح، كل هذا دفعني لدراسة السينما، وقبل أن أنسى ثقتي بأني أتفوق على الجميع وقد كان.

لم يكن الإخراج أو العمل من وراء الكاميرا هدفاً لمحمود، هو أحب أفكار الروائي، وكيفية قراءته للبشر، لم يكن كذلك مهيأ نفسياً لقيادة مجموعات

كبيرة من البشر خلف الكاميرات، في مجالات مختلفة وبعقول وقلوب لا يفقهها، لذلك ظل يعمل على رواياته ويساعد المختار من خلف الكاميرا كهاو وبمهام معينة ويتدخل معه في كتابة السيناريوهات، وكان مميزاً في هذا الأمر.

جرتني سلوى من جديد إلى طريق المختار، حين أخبرتني أن لها صديقة تريد التعرف عليه، تكتب سيناريو ورواية ودارسة للسينما، وكأني الشخص الوحيد على أرض الكوكب الذي يعرفه، ورفضت لكن التخلص من زن أختي كان هدفاً تسقط أمامه الكرامة والكبرياء ورغبة الانتقام.

تحدثت مع محمود الذي كان يساعده في التحضير لفيلم جديد وداعبته بأن الفتاة الحسناء يمكنها أن تجعل المختار يستغنى عنه ويكتفي بما تكتب هي، لكن شاء القدر أن تتحول النكتة إلى حقيقة.

ذهبت ماهيتاب لمقابلة المختار، لم أكن أعرفها جيداً، لكني لم أحبها، وتفهمت لأول مرة لماذا يكرهني الناس، صفاتي السيئة التي أخبرتني بها سلوى ومحمود، قلة ذوق، عجرفة، تعالي غير محسوس، عدم اهتمام إلا بما أريد الحصول عليه، لكن لم يكن لدي رغبة أو اهتمام بالرد عليها، حولتها من البداية لصديقي، وبالطبع بادلتها عجرفة بكبر.

أما محمود فكرهها منذ البداية، ربما فكر في كلماتي أو لأنه يعرف أستاذه جيداً، وانجلت لنا بمرور الوقت الحقيقة، ماهيتاب لم تكن تستهدف فقط كتابة السيناريو، لكن أيضاً تدوين تاريخاً جديداً في حياة المخرج الكبير، الذي كان توقفه عن الحب أمراً مثيراً للجدل.

وقتها كانت ماهيتاب في منتصف العشرينيات أما المختار فكان الفارق بينه وبينها ثلاثين عاماً، لم يصل لسن المعاش إذن، عاشا قصة حب دونها شكري فايد في كتابه "السيرة الإنسانية لمختار".

نبتت ماهيتاب في قصر سياسي فاخر، والدها عضو مجلس شعب سابق، كانت له صولاته وجولاته الكلامية سواء تحت قبة البرلمان أو بين أبناء دائرته، تاجر كلمات مستهلكة وتالفة.

كان يتحدث من علي، بلسان كبر مطبق، يتغنى بأمجاد عائلته التي تعود جذورها إلى الريف، أما أمها فحالمة شقراء من حي الزمالك الراقي، رهان صائب فاز به الوجيه الذي بات أمثل باقترانه بها.

حب الأم، السيدة هيام الأحمدي، للأدب والفن، وبعدها الكلي عن الواقع، ساهم في نزعة بنتها لعالم المختار، لكن روح أبيها لم تغادرها يوماً، ورأت فيها الكمال مع قلب أمها، أخذت الكثير من أبوها إلا مجال عمله.

تفوقت في التعليم ودرست الأدب الإنجليزي وأتبعته بدراسة السينما، قسم السيناريو، لكن دائرتها اتسمت بالضيق والتفرد والمحدودية، بإرادتها وليس رغماً عنها، رأت نفسها متفردة ومتفوقة دوماً على الجميع.

إلا أن الحسناء حين قررت الهبوط إلى الأرض والانغماس مع من ينظر لها أبوهم من علياءه، خصفت في ارتداء عباءة الأم الحنون، بروح الأب، مثلما فعل قبلها ولا يزال في جلساته مع أبناء الدائرة الكرام، الذين لم يتخلصوا من رائحة عرق الأرض، ما كان يثير نفور الوجيه الأعظم.

بعض تفاصيلها الصغيرة التي ارتبطت بكونها ابنة وحيدة، لا تقف في الصفوف الطويلة، وتدلف مباشرة إلى موظفي البنوك وشركات خطوط المحمول، وتهينهم دون رأفة، لا يجرؤوا على الرد في مكالمات تليفونية تقبحها الآذان، في حق مكتسب لا يقدر أحد على معارضته، غطرسة لا نهائية..

حين دخلت عالم المختار، أدركت أنها كي تحتفظ بهذا عليها أن تكون ذا طبيعة ومكانة خاصة لديه، خاصة أنه كان حلماً كبيراً لها، وبامتلاكه تشعر بتسيد الزمن الفائت والفن والجمهور والمستقبل، كل ما أبدع بات ملكها، من اقترنت به في السابق لا يقدرن على منافستها.

تبنى الزيجات على عدة أسس، النسب الشهرة، العائلة، المصالح المشتركة، لم تكن نزوة للمختار، بل بيع رابح من كل الوجوه، وللطرفين.

أما عن النزوة فهي الروح التي تعطش لها، الشباب الذي سوف يحييه من جديد، الرمق الأخير، شهادة ميلاد جديدة بالكومبيوتر وليست ورقية من الطراز القديم الذي اعتاده من قبل.

تحتاج الأرواح إلى من يوقد شعلتها في لحظات الفتور والوهن مثل المختار، ويتوهم الصغار من ذوي القلوب المتقدة أن بإمكانهم العيش في ألف حياة ومعاشرة ألف قلب لا يعرفونه، وهمين أحدهما بفعل التاريخ والآخر بصمة المستقبل.

كل ما سأدونه عن علاقة الحب بين المختار وماهيتاب، تطوراتها ونشأتها وأيام شهر العسل، كلها من أسرار شكري فايد، لكن الجزء الثاني للقصة، والتحول من الجنة للجحيم، فهي حكاية لها آباء كثر.

ربما يكذب من يرى ماهيتاب الآن، رواية أنها كانت هذه البريئة الحالمة الواعدة، التي تهتم بأدق تفاصيل حياة أستاذها وحبيبها.

تحرص على زيارته كل يوم، وتغرقه في هدايا من الصنف الذي يفضله، من الطعام والملبس، لا ينقصها المال أو الذوق أو أسلوب العرض أو الغرض الخبيث

ولا تتحدث معه عن أي شيء مرتبط بالفن أو العمل أو الرواية الآن، هذا سيأتي دوره لاحقاً، حتى حين يكون في أصعب لحظاته، يحضر للانتهاء أو البدء في فيلم، يجتمع مع مسؤولي دور نشر، يقيم audition لاختيار مواهب، المانع الوحيد الذي كان يمنعها من رؤيته هو السفر للخارج لزيارة أبنائه أو لحضور ندوة أو مهرجان.

لم أكن مقتنعاً بما كتبه شكري فايد في هذا الصدد، لم يكن أباً حنوناً أو حريصاً على أبنائه لكن هذا جزء من قراءته لصديقه المقرب، أو ذاك التغابي لتصديق شي „ئ ما، كلنا نفعله مع من نحب أحياناً..

أدركت ماهيتاب ولع شكري بالأغاني القديمة وحفظت ودندنت له في جلساتهما الخاصة سواء في المنزل أو المكتب أغاني شادية وصباح الخفيفة من أمثال "يا لموني" و"ب فتحة باء" "روح على مهلك"، تدنت أكثر من قلبه وروحه.".

تدللت بالحب والصبى والأحلام، بالثقة في أنها أفضل من كل من عرفهم، مستهدفة عنصر السن الذي لعبت عليه وتفوقت بسهولة، لم يكن غيرها في الحلبة.

أكد لي محمود روايات شكري فايد عن الحسناء الملهمة ماهيتاب، بل أنه كان يسمع غناها له بنفسه في الإستوديو مع الممثلين وطاقم العمل أو في المكتب وسط الأوراق مكانه الأصلي أكثر من الأستوديهات المزدحمة التي لم يحبها يوماً، وفي خلال أشهر قليلة اتفقت معه على الزواج، اهتمامه بها كان واضحاً وعرفت أنها راهنت عليه زميلاتها من معجبيه القدامى.

لم تكن ماهيتاب في حاجة لإظهار أنها الأميز والأقوى والأفضل، إلا هذا الارتباط غير الطبيعي والشاذ برجل يكبر أباها، احتست الحب ثم تذوقت كأس المجد الذي كان سيأتي يوماً ما، لكني أشهد لها إنها لم تفرض أفكاراً رخيصة أو تافهة، وهو ما شجعني للعمل معها يوماً ما، لكن بعد فرض مجموعة ليست بقليلة من التعديلات..

تعودت تلك الحسناء على امتلاك الأشياء، ابنة وحيدة، متململة من حياة مترفة، ذكية متفوقة، ثقتها في نفسها طاغية، ولكن الجمال لا يدوم ولا الحب ولا الثقة وحتى الأغاني ستتوقف وسيتغير صوت من تنشدها.

أنجب المختار ابنتين شهد وهناء، وولد محمد، لم يكونوا أشقاء، من ثلاث زيجات مختلفة، ومن عقليات أيضاً لم تحظ بكم كبير من التفاهم.

إلا أنهم اتفقوا على حبه دون التعلق به، وحين حاولت أن أصول في روح الطليقات، لم أجد لديهن شعوراً بالانبهار بل على العكس، لم تندم إحداهن على الانفصال، بل إنهن يحمدن الله بكرة وأصيلا، أين أنت منهم الآن يا ماهيتاب؟، لماذا صوبت سهامك نحو رهان خاسر.

المختار ليس ملاكاً ولا شيطاناً وبحكم رجولتي لا ألومه على أي شيء في اختياراته النسائية أو انفصالاته.

أما الأولى فكانت كاتبة مثل الأخيرة، لم تحظ بشهرة كبيرة، لكنها الوحيدة التي انتمت إلى جيله، كبرها بعامين، في قاموسه النسائي كلهن جميلات، يمكنك بسهولة استكشاف ذلك، سيدة بيضاء اللون شعرها ذهبي بحكم الصبغة، جمالها غربي، ووجها لامع ينم عن نضارة اختفت، ربما أتذكرها في حفل قديم أو ندوة شاهدتها فيها معه عبر "يو تيوب"، تقاطيع صغيرة تنم عن مذاق استثنائي وشعر فعلت به آيادي المصففين الكثير لكنه يبقا براقاً على قدر الإمكان.

لم يكن من الممكن أن أدلف إليها بفكرة، أيامه الأخيرة، وهي التي تركته منذ عقود، وكلما ابتعدت السنين وتخلصت الضحية من وقع اللكمات هدأت النفسية وبانت مرنة في التعامل بدون حساسية أو عنت في إخبارك بالمعلومة.

بيتها كلاسيكي قديم، صالون أوبيسون رفيع المستوى، مذاق سيمله الرمرام الشره سريعاً، هذا شيء طبيعي، سيدة أنيقة هانم حقيقية، لا تروم إليه وإن رامت يكون حتى حاجة في نفس المختار قضاها.

شكرتها على حسن الاستقبال واعتذرت عن الإزعاج وأخبرتها بسبب قدومي، ورغبتي في سرد الكثير من التفاصيل عن المختار، أستاذنا جميعاً، لم أكن منافقاً، كلامي به من الصواب الكثير، لقد تعلمت منه شئت أم

أبيت، هذا كان مفتاح الدخول إلى سر قديم عن المختار، أن أتحول لمنبهر يفوق محمود في أيام الشباب ومريديه الذين لم يعرفوه حقاً.

- أريد معرفة كل شيء عن المختار، أنت زوجته الأولى، كيف كان معك، زوجاً وحبيباً، قبل الانفصال وبعده، علاقته بإبنتك شهد البكرية، أعرف إنها كانت الأقرب لقلبه، لماذا لم تعمل بالفن؟، وماذا عن علاقتها بإخوتها؟ (أسئلة لا تفيدني بشيء، لكنها تفتح القلب)
- أرجوك يا بني، حاول أن تهدأ قليلًا، أسئلتك لا تتوقف، نسيت أول سؤال طرحته، استرح وهدىء من روعك.

صغت لها ببراعة دور المضطرب، أربد وجهي، وتفصدت عرقاً، وترت نفسي منذ بداية اليوم في الأستوديو ومع عمال المنزل ومساعدي نهرته وافتعلت معه أزمة، توجب علي أن أعيش دور الخائف المضطرم، كمن يهيم عشقاً بفتاة ويصاب بالوجوم ويدق قلبه بلا توقف حين يراها.

- اعذريني يا أستاذة، أنا أبجل الأستاذ كثيراً، ومن ثم أعرف أن حواري معك مهم لعمل شيء عنه، صدقيني أنا لست هكذا ولكن كل ما يتعلق بالأستاذ يشغلني، أريد معرفة الحقيقة ولا تتخيلين أني أريد تقديسه أو وضعه في مصاف المعصومين.
- معصومين (رددتها بسخرية ودهشة) أنت طيب للغاية، لا تزال صغيراً ولا تعرف شيئاً.
- أريد معرفة كل شيء، هل يجوز لي.
- ماذا تريد المختار كان زوجاً طيباً ورومانسياً للغاية وأب حنون، لا أريد أن أكسر الصورة التي رسمتها في مخيلتك.

- معذرة على سؤالي ولكن هل كنتما من نفس المستوى الاجتماعي؟ - سؤالك خبيث؟ (ابتسمت كأم تعرف ما وراء إبنها الكاذب)
- لا ولكني أرى الأستاذ كفتى أحلام يمكن لفتاة ارستقراطية مثلك، أن تراهن معه على تجربة جديدة، لقد قرأت عن هذا الحب، ولكني الآن مع من أحبت وشعرت (توقعت تملل شديد وكلام ثقيل مما يكتبه

صديقه شكري فايد عن رومانسية الأستاذ)

- أيام ومرت، لا داعي لذكرها الآن، أبي اعترض عليه، لكنه لم يكن معدماً وأبي لم يكن إقطاعياً كان ثورياً وناصرياً حتى النخاع، لا يهم إنه قادم من حي شعبي، بالإضافة لا تنسى شيئاً لقد تعلم في فرنسا

ودرس السينما، هو ليس الشاب التائه الذي يريد زوجة غنية ليستغلها.

- لهذه الدرجة كان مثالياً، نريد صورة حقيقية نريد القبيح والجيد، أريد

معرفة كل شيء، اعتذر ولكن لنفترض أن عانى من عيب، وكلنا ننضح بالعيوب، أنت زوجته الأولى وبالتأكيد تعرفين ما لا يعرفه أحد، أنت الخبرة الأولى التي استخدمها في زيجاته التالية.

- انظر، المختار لا يحب تحمل المسؤولية مطلقاً (هنا انفتح قلبها بسذاجة ستينية نتحدث لشاب في مقتبل العمر تريد أن تمنحه خبرتها)، إياك حين تتزوج أن تكون مثله، عشق النساء ولكن في حدود.
- ما هي الحدود في عشق النساء؟
- لم يدخل في علاقة محرمة يوماً، لكنه تزوج ولا أعلم هل في تلك الزيجات كان دوماً ينوي أن يستمر أم لا، وإن كان لا ينوي فهو الحرام

بعينه، أي زواج مؤقت هو زنا، لست سلفية ولكنه العقل، علاقة متعة لجزء من الوقت.

- لكن الذي أعرفه أن زيجاته لم تكن قصيرة بهذا الشكل.
- انظر يا ابني، هذا زوجي، كان طفلا، يقولون الرجال كلهم أطفال، حين يتعلق بإحداهن يشعر أنه لا يمكنه العيش بدونها، وحين يمل بعد الامتلاك، يؤمن أنه لن يقدر على العيش لو استمر معها ساعة واحدة وهنا يقرر أن يتحرر.
- هل حكى لك شيئاً بعد الزواج، يبدو أنكما بقيتما أصدقاء.
- لا ليست صداقة، حين كان يأتي لرؤية إبنته وتتبادل أطراف الحديث، كنت أفضحه بسهولة مثل أمه، بل وأكثر، أمك لن تحب أن تعيب في إبنها، قد أخفي على إبنتي شيئاً أكرهه فيها كي لا أجرحها وقد التمس لها الأعذار، لكن مع الزوج لا حياء، لم يجرؤ أن يناقشني في حكمي عليه أو يقول أني احتال عليه.
- هل كان دائم السؤال على ابنته؟
- نعم لكن دون أن يجعلها تتعلق به، عشقها كما لم يحب أب ابنة ولكن دون تعلق كان يخشى التعلق بأحد، القيود.

حتى هنا لم أجد شيئاً ينتقص منه، مثله مثل أي رجل، ربما لو في مكانه لتحولت لمثال أكثر سوءاً وسلبية، هذا في قانوني ولكن حتى في قانون محمود لم تكن كلمات كهذه لتضرم صدره نحو المختار، كل ما قالته بالنسبة لمعرفتي بالمختار لم يكن مفاجأة، ولم يكن وصمة.

سألتها عن غصة في الحلق، أزمة الرفض والترك والركض وراء الشهوات أو أي شيء غيرها، هي التي أحبها واختارها وعشقها يوماً ما، الحبيبة الأولى التي تستكمل الدور وخرجت بعد عدد مشاهد قليل.

عادت سنوات وعقود إلى الخلف، لمستها كلماتي ارتجفت رغم احتفاظها بهيبتها وكبرياءها، لم ترغب في البوح.

هي من تلك الأرواح الصامتة التي لا تنطق إلا بالخير، فتخفي شرارات ملتهبة ربما تكون أكثر صدمة من لسان زلق لأمرأة سلفع.

فشلت في تعريتها من كبرياء السن والعمر وقداسة الموت، كي أصل للحقيقة، دور الأبله لم يروق لها، ولم أكن مقنعاً تماماً في تمثيله.

يبدو أن هناك أشخاص غلاظ القلب كتب لهم الله الستر في الحياة والممات، بفضل قلوب لينة مثل تلك التي نمتلكها حين نسامح طفلنا حين يقترف جرم، غاية في القبح بل ونتصدى للدفاع عنه.

زينة صبري، حسناء خمسينية تحتفظ بوجه رياني ونظرة جريئة تنم عن تنوع فني، تزداد حلاوة كلما مر بها العمر، فصيلة نادرة، هي دليل دامغ على حسه الشهواني الذي اكتشفها في سن صغير، ربما آنذاك بدت بريئة عذبة
مثلما ظهرت في أفلامها الأولى، لكن ما ضمره صدره وغريزته واضح جلي أمام عيني.

لم تكن لي مندوحة من الاحتفاظ بالوقار التام أثناء حواري مع زينة، فلقد عبرت لي عن سعادة بالغة أني لا أزال أتذكرها بعد ابتعادها طويلًا عن الساحة، ويبدو أنها تخيلت أني أريدها معي في عمل، ولكنها تصلح للكثير

جداً من الأدوار، وحين داعبتها بإنها زوجة "الأستاذ" والشرف لي في العمل معها دهشت، ولم أشعر بلحظة انبهار من جانبها صوبه، يبدو أنها لم ترتد عوينات ماهيتاب ولم تحتاج له مثل محمود ولم يصيبها هوس الانبهار به يوماً.

لا يعوذ الشخص أن ينبهر بشريك حياته بعد الارتباط، اللذة والدهشة تكون قبل، أما هي فيبدو أن حتى هذا الشعور الأولي لم يكن لديها.

طلبت منها أن تحدثني عن علاقتها به، بعد أن أوهمتها بأني أحضر لعمل جديد وسأكون بحاجة إليها، لكني أريد أعرف منها الكثير عن أستاذي الذي عاشرته في سنوات التوهج نهاية العقد وبداية العقد الخامس.

- أنا لم أعاشره طويلًا ولم أعرفه حقا، كنت طفلة صغيرة لم أتجاوز ٢٥ عاماً، لم أعرفه جيدا ولا أظنه عرفني وأدركني جيداً، نعم كان يكبرني بعقد لا إثنين
- ماذا تتذكرين عن حياتكما معاً، لماذا انفصلتا... كنت أصغر زيجة في حياته؟
- لم يكن ممكناً أن نكمل معاً، هو محب لعمله أكثر من أي شيء آخر، هل تعلم لقد أسقطت جنيناً كان في رحمي منه، لا يمكن لا يصلح لأن يكون أباً لإبني.

تعجبت من مشهد الزوجة الصالحة والأم التي تختار الأب المثالي لطفلها، ولم ألمح في حديثها أي إدانة بل على العكس فهي أيضاً لا تصلح لأن تكون أم.

- هل أخبرتيه بعملية الإجهاض؟
- لا لم يعرف الموضوع من أساسه، لم يكن لماحاً، أو يمكنك القول كان يلمح ما يحبه فقط، لا يهم أني متعبة مرهقة، أموت. - يريدك في لحظات التوهج الأنثوي وكفى.
- نعم هو مثلكم جميعاً محب للنساء، محب للنساء؟
- حال كل الرجال كما تقولين، لكن ليس هناك مجال للحديث عن هذه الأمور. إنه رحل الآن.
- هل تعرفين زوجته الأخيرة، ماهيتاب؟
- لا لم أعرفها مطلقًا، إلا أني أعرف إنها موهوبة مهذبة قابلتها معه مرة في حفل لم تكن نعرف اننا تزوجنا من الأساس.
- لماذا انتهت الزيجة مبكراً؟
- مسألة شخصية بحتة أم معتاد لم نتفق، يحدث كثيرا خاصة ر

لصديقك رحمه الله هذا ما علمته عنه - لي

أن أوجه سؤالًا؟

- تفضل؟
- ألم تكوني منبهرة به، ألا تعتقدين أن زواجك برجل يكبرك بهذه السن يعوذه المنطق، توقعت ثمة إعجاب تتحدثين اعتذر عن الوصف لكن ببرود كلي عنه، جئتك أسال عن المختار وجدتني أريد معرفتك أنت لماذا ومعك كل الحق الا تجيبيني وهذا ما أتوقعه؟
- لماذا كل هذه الحيرة تزوجنا لهدفين كلا منا كان يبحث عن شيء .. ولكن ما هو هذا الشيء ابحث انت عنه.
- لا أحسب أحدكم قد وجد ضالته.

- أنت على صواب، من الممكن في البداية عملنا في فيلمين، وهو أخذ ما طلب، لماذا نكمل إذن؟ أجبني أنت؟
- ما أسهل هذه الزيجة. لو كل الزيجات هكذا لما أكمل اثنان حياتهما معاً؟ أو لربما كان يتوجب أن يكون هناك مبدأ أهم حين يقرر شخص ما أن يتزوج، أن يحب بكل جوارحه، يهزم قيس وعنتره ويحارب الأب والأخ والعم إن وجد، كي يظفر بمحبوبته.
- تبدو رومانسياً للغاية يا أستاذ نائل، على عكس ما يبدو في أعمالك.
- لا هي ليست رومانسية لكن إجاباتك عجيبة، ربما صريحة وجلية وعارية أكثر مما تخيلت، زوجك الراحل كان يذهلنا، توقعت أن ارتباطك به لنفس السبب.
- كل ما في الأمر أنه مخرج كبير فتح لي طريقاً، كما قلت لك كلًا كان له في الآخر مطمع، انتهت القصة، عما تبحث، تريدني أن أدعي بطولة مزيفة أو أن أسرد لك قصة غير حقيقية، للعلم، لا مشاعري ولا مشاعره كانت مضمرة، لقد اعترفنا لبعضنا البعض بهذا الأمر، قلت لك.
- لماذا لم أراكي يوماً في أعماله؟
- كيف لقد عملت معه فيلمين قبل الزواج وفيلمين بعد؟
- لا أقصد هذا، لم أشاهد شخصيتك في أعماله، لم تظهر له بطلة مثلك تحمل صفاتك؟

ابتسمت بدهشة حقيقية وضربت كف بكف مستاءة: يمكنك أن تسأله، لم تخبرني ما الدور الذي تريدني لي وما العمل، وما مساحته.

- ستعرفين كل شيء حين ينهي السيناريست كتابة دورك، أردت اليوم فقط معرفة هل يمكننا أن نتفاهم سوياً أم لا. - هل نجحت في الاختبار؟
- نعم يا أستاذة، سنكون ثنائياً، يحيي الموتى ويبعث من في القبور.

شعرت بعدم حاجة للزوجة الثالثة التي تعيش في لندن، وكانت محاولات مساعديني الجادة للتواصل معها غير مجدية ورأيت أن ما التقطته من الأولى وما اختبرته في الثانية يكفي، لرسم المشهد الذي يقنعني عن المختار، تلك الصورة التي طالما عرضتها على محمود ولم يدقق جيدا في أبعادها.

من فرط إعجابي بحديث زينة عن دنائته الظاهرة، التي اعتقدها جلية لكل لبيب فطن، قررت التعاون معها، أو على الأقل وضعها ضمن خياراتي المستقبلية، هذا وجه من الحياة العادية، دائم الحضور، في بيوت عديدة، وفي أروقة الأعمال، سيدة خمسينية لا يعوذها الألق أو الحلاوة ويعكس حسنها ويفضح الكثير إذا ما تغلغل في أغوار خبيثة، مثل حال عموم البشر.

سألت نفسي إذن، لماذا لا أسأل الزوجة الأخيرة التي أعرفها والتي ربطتها بالراحل بمكالمة تليفونية لم تصدق نفسها حينها، كأنها في حلم وتعانق السماء، ألم يحن وقت رد الدين إذًا، ولكن كيف سترفض، لكن يمكنني أن أحصل على ما أريد، فكما علمت من سلمى، فالأيام الأخيرة لهما لم تكن طيبة خاصة لها، شعرت بالندم وأرادت لو انفصلت عنه، إلا أن ثمة شيء ربطهما، ما يمنحها من شهرة وعدم قدرتها على البقاء في السوق بدونه، أو

الخوف من تهمة التخلي عنه في الأيام الأخيرة، لا يمكنك أن تقتنص شيئاً من قلب إمرأة بسهولة، خاصة لو كانت ذكية.

هي مهمة ليست يسيرة، لكنها لا يشوبها كذب أو محاولات إخفاء أو تعالي على ممثلة مهجورة، هي مواجهة الصراحة القحة، لو لم أخرج إلا بموافقتها القانونية على نشر سيرة أيام الأستاذ الأخيرة فهذا يزيد عما يرضيني.

رتبت موعداً مع ماهيتاب في منزلها، وتعللت برغبتي مناقشة بعض الأمور معها حول السيناريو الذي أعمل على إخراجه من كتابتها، هذا التعاون الذي أدخل جمرة خبيثة في قلب الراحل كانت أحد أسباب وهنه الأخير، بالإضافة لأسباب أخرى، لا تعرفها إلا هي وربما محمود وبلا شك شكري فايد.

- بأي حال جئت يا نائل؟ (يبدو أنها تدرك سبب قدومي الخبيث إليها) - لدينا عمل معاً.
- أم جئت لتتشفى، لم تزر منزله قط رغم دعواته المستمرة لك.
- لم يكن عن قصد، لكني لم أحب مثل هذه التجمعات وهذا لا يعيبني ولا يعيبه على الإطلاق، عدم التوافق لا يعني كرهاً، على الأقل من جهتي.
- أمم وماذا تريد إذن؟
- أتحاولين إقناعي من الأساس بأنك حزينة على زوجك الراحل؟
- لا يهمني إقناعك، المشاعر منطقة لم تسير فيها يوماً، كما قال المختار، أنت قارئ خبيث لقلوب البشر.

ابتسمت بسخرية :

- صديقتي العزيزة ألم تتمني موته، كي تتحول حياتك لطبيعتها التي يتوجب لها أن تكون عليها.
- (مقاطعة) لا أسمح لك .
- صدقيني لست هنا للتشفي أو أي شيء سلبي ما عاذ الله - كنت أكذب بالطبع - أريد أعرف ما الذي حدث له في أيامه الأخيرة.
- أمممم أعلاقة لك بذلك السفيه خطيب المومس شيرين.
- مومس ! (صعقني الوصف - ودهشتي أمر نادر) لكنها أجابت لي عن سؤال، وبرهنت لي على أنهن مهم بلغ معدل ذكائهن يمكن استفزازهن بلحظة.
- بعتذر وأرجو أن تفسري فأنا لا أعمل مع بنات ليل وشيرين ممثلة موهوبة واعتمدت عليها في أكثر من عمل، ولم يعلق أحد بشكل سلبي عليها هكذا إلا أنت.
- لا شيء، لا يذهب بك خيالك الخبيث إلى أي منطقة، أنا أكرهها احتقرها، فتاة شحاذة، تريد أن تصبح نجمة، جاءت من بلدها ولم يكن في جيبها خمسين جنيهاً، وتتحداني أنا.
- يا ابنة الأكرمين، الطموح والحلم حق، والتغيير حق، وإلا لعاش زوجك للأبد فوق القمة وظللنا لأبد الآبدين نلهث خلفه، فقط بالطموح قابليته وشقق ت طريقك، لا أرى أنها فعلت أي شيء سلبي.
- بعيداً عن أخلاقك الرفيعة في الدفاع عنها، (عبارة أطلقتها بسخرية فظة) ماذا تريد؟ أي شيء عن حياتي الشخصية لن أسمح بأن ينشر.

- لكل شيء ثمن، والمختار ليس أول شخصية عامة تسرد حياتها في سيرة ذاتية أو فيلم أو رواية.
- لا تتخابث، أنا أفهمك جيداً، ولن أمنحك ما تريد، مهما مارست آلاعيبك، أنا أكثر من يفهمها، وليقل لك محمود أو شيرين أو أي شخص آخر ما يريدون، لو نشرت كلمة سأحبسكم جميعاً.
- هانت عليك سلوى، تحبسين شقيقها صاحب الفضل، اتق شر من أحسنت إليه حقاً (قلتها بلهجة سخرية ممزوجة بدهشة مفتعلة)

هنا ذهبتها وتركت لكنها لم تكن زيارة بلا جدوى على الإطلاق، هناك سر تحمله شيرين، ولكنها لن تتحدث، ولكن هذا يكشف لي سر تراجع سمير عن استكمال البحث، هذا خيط بدأ يوضح، لا يزال الغموض ظاهراً، علي أن أقطع أوصال داخلية يأبى أي رجل أن يكشفها، هي محاولات ليست بالسهلة ولكنها ممكنة.

جفلتني الريح صوب منزل محمود الذي ابتاعه في أحد ضواحي السادس من أكتوبر، هدوء يليق به لا ريب، ولطفت الجو بصينية بسبوسة بالقشطة وكيلو كباب وكفتة ولم أنس أم علي.

أبدى محمود دهشة حقيقية من الدخلة الرسمية بشراء هدية عند مجيىء وهو يدرك جيدا أني لست من هواة الرسميات، لكني حجتي استعادة ذكريات الماضي وأيام الدراسة، كيف كانت هديتي هذه هي قمة الأحلام في لحظة طفولية صادقة مع علبة سجائر.

لم تخيل الدخلة الرسمية ولا الطعام الشهي على الصديق العزيز، سألني مباشرة عن سر زيارتي وكأنه يعلم شيئا ما.

ولم أكن بحاجة لأكثر من هذا كي أروي عليه ما حدث من سمير بداية من طرح فكرته لمساعدتي له وحتى الوصول لنقطة البحث عن صديق مقرب.

محمود: ما قيمة الفكرة حين يكفر بها صاحبها هل يظل هو والدها الأصلي؟

نائل: الأفكار ملك للجميع، الجميلة الشقراء ربما باتت مستهلكة بالنسبة لزوجها، لم يعد له فيها غرض فلماذا لا نتقاسمها مع

- تشبيه حقير يناسبك ولكن ما غرضك؟
- إهانة قديمة ولا تنسى يا صاح، أنت أيضاً لك غرض
- أنا ايضا (قالها بدهشة أدرك أنها مفتعلة وهو يدرك أني أعلم) - نعم خلافاتك مع زوجته ماهيتاب

(ابتسم بخبث ينم عن جهلي) :

- التي أحضرتها أنت مثل كل ما تجلب كل خبث بين أشر
- الخبث لا يبدو جليا الخبث يتغلغل دون أن نشعر ولهذا تسمى امراض خبيثة (ضحكت ساخراً) اعتذر هو يكون واضح على امثالك الذين يقرأون القلوب النقية
- بعيدا عن هذا حاول أن تكتبها باسمك لا أعتقد أن ضميرك سيؤنبك كثيراً
- أنت تعرفه أكثر مني ولن تخبرني بشيء، الا لو كانت لك مصلحة مباشرة، في النهاية لم أعاشره مثلك وحتى شكري فايد لا يعرف

مثلك عنه، انت أحببته وانبهرت به وعاشرته ماذا تريد أكثر من ذلك كي تكون المصدر الأساسي للعبة

- ماذا تريد أن تستكبني؟، لم يحدث ولن يحدث
- بل يحدث كل يوم، أتصدق نفسك، الصحافة التي عملت بها استكتاب تكتب ما يمليه عليك إما رئيسك أو صاحب المال ولكني لست وقحا مثلهم يا صديقي
- هذا هو الواقع الذي نعيش فيه، نكتب الكذب بوقاحة من أجل صاحب المحل.
- وأنا لا أطلب منك إلا أن تكتب الصدق ودون وقاحة، ما تريد اختراعه اخترعه، لن ألومك وأعاتبك وأقيم لك محاكمة ضمير، اكتب ما تريد عنه وسأصدقك ولن اعارضك لكن دون كذب كما عهدتك ولا من أجل إثبات رأيك القديم أيضاً.
- لماذا تعتقد أن رأيي فيه بات قديماً
- رأيك الجديد يا سيدي هل هذا مناسب؟
- ماهيتاب ستقاضينا (قالها وأشعل دخان سيجارته وهو يومىء لي بنظرة يائسة)
- تقاضينا (صحت بسعادة حقيقية بأن المصدر الأساسي لتشريع الحقيقة قرر أن يروي) إذن صرت معنا هذا كل ما يكفيني الآن لا اريد أكثر من ذلك
- دوما ما كرهت سرقت الأفكار والآن اشترك معك في سرقة رواية من بابها، بحجة أن صاحبها ملها، فلنتركها وشأنها إذن

- هي فتاة حسناء كما قلت لك ولكن زوجها الاول تركها لقيطة وهي لا تحبني كن رجلها إذن
- وما هي زفت
- الخبثاء يعرفون كيف تلعب اللعبة جيدا وما هي في النهاية أقل من أن تناطحني قضائيا
- كلامك لم يقنع
- ألم تسمع عن الهاكرز
- ماهيتاب متعجرفة ومتنمرة أكثر منك، في النهاية أنثى حين تجن لا تأمن شرارتها ولا تعرف إلى أين تصل
- كلما تتذكر رفض ماهيتاب قل الحل في الهاكرز
- لماذا تتعامل معي كأني الصندوق الأسود الذي تبقى من طائرة المختار، هناك صناديق أخرى، شكري فايد والزوجات الحسناوات، المختار كان بحراً من العلاقات.
- وأنا أملك من الصفاقة ما يجعلني أؤكد لك أنك تعرف هذا البحر حتى قاعه الدفين، أنت الصديق الودود المقرب، الذي لن يخجل أن يكشف لك أي سر بثقة وحب، حاورتهن جميعاً، ولم يزيدوني شيئاً،

هم من عمر فات، ماذا قالوا، متصابي لا يهمه إلا متعته وفنه، الذي يجبرنا عليه بطريقته المعتادة، لا أنكر أن لها مهاويس مثلك ومثلي يوماً ما، لكن هل تعلم، لا زوجاته ولا أبناءه انبهروا به مثلنا - لا كرامة لنبي في وطنه، قاعدة قديمة

- ولأنك اقتربت من هذا النبي فأنت تأكدت أنه لم يكن صاحب رسالة،

لا تحاول أن تراوغني أكثر من هذا، لقد كنت قريب شريك في

الاهتمامات مهووس به منذ اليوم الأول، لن تفكر إلا في الامتنان له على ما يجود به عليك من خير التبعية والاقتران، وهذه كلها أمور

تكفي لفتح القلب، ونريد أن تستكمل العملية. - هذه هي صفاقتك التي تملكها إذن

- نعم

****

محمود الشماع - الراوي الثالث

انطلى محيي الأستاذ في أخر الأيام بالحزن والهم والأسى، قتامة تمثلت في ثرم أسنانه وانحسار بريق وجهه، وفي قلبه الذي عشق الحياة غربت البسمة، ظهر في حوار تلفزيوني، قبل أسابيع قليلة من الوفاة كان شبه تائهاً، بلا ابتسامة ميزته لسنوات مضت، كأن عليه حجر، روح مقبوضة وقلبه مسدود إلى الأبد.

حاول المذيع الصاعد منحه التضخم والهالة التي يستحقها، كان بارعاً ولكن كأنه يتحدث إلى صنم أو جثة هامدة، ردود مقتضبة، أو أقل، تعليقات إما توضيحية أو كنيبة، شخص مجهد يتحدث إليك، ربما تخيل هذا الشاب أن استضافة المختار ستمنحه دفعة ورفعة في مكانته كإعلامي صاعد لكنه فوجئ بالعكس.

هذا ليس المختار، أنا درسته جيداً وتوغلت لروحه بقسوتها وتدنيها ولينها ورفعتها، حتى تلك الأطعمة الشهية التي لم يكف عن تناولها طوال عمره، واستمتع بها كجزء من نظرية المتعة في كل فعل كالنساء والفن والتطيب

للتأنق والحب بأنواعه، من الرومانسي الحالم للزوج الحنون، من الأب

للصديق الطيب، كلها وكأنها تحولت إلى أمراض يعاني منها وغير قادر على التخلص من أنيابها التي تنهش فيه لتكتب السطر الأخير.

الأطعمة تسببت في مشاكل في القلب والقولون والنساء طلقن منه، والأبناء لا يعيشون في كنفه كأي عجوز في أيامه الأخيرة، وماهيتاب أخر ما تبقى من علاقته بالجنس الأخر، بل بالدنيا كلها، تنهي الحياة.

لم يكن منطقياً أن تنتهي القصة هكذا، لكن هذه طبيعة الماساة، مثلما درسها في الأدب الإنجليزي، تبدأ القصة وكل شيء على ما يرام، ولا توجد أي مشكلة، ثم في النهاية وعلى مدار الأحداث يتحطم كل شيء.

ثمة عيب أو صفة بعينها، ليست بالخيرة أو بمعنى أصح ليست طبيعية، تخرج كل ما فيه من الألم والمعاناة والرغبة والخطأ، ما خفي دوماً أعظم، وهوله أكبر حين يتعرض إليه.

لم أكره الأستاذ يوماً، لقد منحني ما احتجت إليه، دور الأخ الأكبر والأب الثاني، الثقة والعشم والطمأنينة، والراحة من حب لم أكن سأقدر على تحمله، ماهيتاب، لكن الأسوأ أنه حاول مع شيرين.

في شيرين كانت لي رغبة، لا أنكرها، اختلافها عن نظيراتها أبهرني، فتاة حسناء، من بيئة متوسطة، لديها طموح وثقة وكرامة وعقل كبير، تدرك قيمة الأشياء لكنها قبل ذلك تعرف أن قيمتها تتفوق على الجميع.

ولكني لا أغالط نفسي، أو أخدعها، لم أكن سأتحمل الزواج من ممثلة، أن يقترب شخصاً آخر منها، ويقبلها أو يعانقها ويحتويها أو حتى يقبل يدها،

هذا ما شاركني فيه نائل، ولم نختلف فيه طوال عمرنا، التحول وتغيير الجلد، هي أشياء لم نتمرسها ولم نحاول، الأمور ليست سهلة، ولو أعجبتنا فهي خبيثة.

لهذا لم أحزن حين ارتبطت بسمير، كنت قد فقدت الشغف بالأشياء منذ فترة، لم يتحول سمير إلى عدو لي، فهو شخص رقيق وذكي وباحث ينهم إلى المزيد، وهذا حقه، وما أكتبه الآن في هذه السيرة هو محض فكرة نبتت في عقله.

ينتمي سمير إلى مجتمع آخر، مختلف عني، الموروثات والعقلية من بيئة أخرى، ولذلك فهو فاز بالحسنيين، شيرين كإنسانة وسلم من أمراض الغيرة والقلق، وفي معركة ثانوية هزم أهله الأرستقراطيين الذين استكثروه عليها.

حين حان لي أن أكتب عن الأستاذ فلا بد من شرح علاقتي بشيرين وكيف بدأت وسارت وتوقفت وانتهت، تلك التي حولها القدر من حبيبة إلى صديقة، أو هكذا أدعي وما هو بصحيح.

إليكم عني نبذة، لست من هؤلاء المحاربين أصحاب القلوب الجريئة والروح الصافية، أنا تحكمني ألف عقدة يمكنني تدوينها بتواريخ ولوجها لروحي وهزها وإصابته بأمراض النفس.

في إحدى الأيام، أخبرني صديقي وجاري العزيز المهندس حازم بأن ابنة أخيه، تريد التعرف على الأستاذ مختار لأنها من معجبيه وتستهدف إجراء حوار صحفي معه، وعدته بالتدخل ولم أهتم لكن ظل يحاصرني وهي من خلفه.

وقتها كنت في أوج تألقي مع المختار، كنت أكتب سيناريوهات أفلامه، أجزاء كبيرة منها، اسمي كان يوضع خلفه رغم أني في أوقات كثيرة أكون كاتب النصيب الأكبر، لكنه صاحب الفكرة وموجه طريقة العمل والتناول، هو المهندس وأنا العامل المنفذ، لا أنكر أني تعلمت الكثير هكذا.

سن شيرين العشريني كان حاضراً تقريباً في جميع أعمال الأستاذ، أتذكر في رأسي الآن كل ما قدم وأرى تلك الفتاة العشرينية، إما خطيبة البطل أو زوجته أو حبيبته أو حتى فتاة تعرف عليها في ملهى ليلي، أو ابنة صاحب المال.

لكن السؤال الذي تحت أسطره تنسج كل الخطوط، هل سيشتهي تلك البضة الحسناء، ريانة الوجه، الوردة المتفتحة، المتمردة المنفتحة لأفكاره من البداية، ومهما كان عقلها راجحاً ألن تفكر فيه مثلما فكرت ابنة الجامعة الأمريكية الشابة ماهيتاب قبل عقد ونيف.

وحين تحدثت معها تليفونياً بعيداً عن عمها أخبرتني برغبة بدت لي مفاجئة، بنيتها دخول عالم التمثيل ما يعني أنها تخضع لعملية تغيير جلد، وأنا مهما كتبت أو انغمست في هذا العالم فإني أجد نفسي غريباً عنه لكن ماذا عنها، من أين جاءت وإلى أي منتهى تريد أن تسحقها الرياح.

أعرف واعترفت لها وللكثير بهذه الازدواجية المفرطة، أنا الشيء وضده، لا يعيبني أن تحملت ألف عقدة ولا أني فشلت في تجاوزها وفكها.

التقينا كثيراً، أبهرتني بثقافتها التي غلبتني، كنت أشعر رغم كبر سني ووزني الاجتماعي بصفتي كاتب في فريق عمل مخرج كبير وهي لا تزال

صاعدة ناشئة بأنها تتفوق علي بما هو أسمى، صفاء قلب ورجاحة عقل وروية، لكنها إن استقلت هذا القطار فالصورة ستختلف.

تمثلت أمامي في سنتها الأولى بعد القدوم من مسقط رأسها، رأس البر، كاتبة باحثة عن عمل صحفي يدر عليها المال ويمنحها الاستقلالية، وعاشقة للتمثيل تريده لكن ليس الآن، ولم يكن لعمها أدنى معلومة عن رغبتها في التحول لممثلة محترفة.

بيد أن شئًا آخر كان يقتلني ويسحقني من الداخل خاصة حين بدأت علاقتنا تتوطد بسرعة لم أحسبها، هي نظرة المختار نفسها لها، كيف ستكون؟، في لحظة ما قد أخسر الاثنين، لا يهم أنا متمرس على الخسارة، لم تعد تجرحني، لكن إذا دق القلب وخسرت فالوجع لا يكون هيناً أبداً، يكون موتاً جديداً كموت أخي.

بمرور الوقت كنا نخرج معاً ونسهر في مقا „ه وسط البلد ومصر الجديدة، أحبت النارجيلة مشروبي المفضل، والقهوة المانو وفطار الفول والطعمية على عربات صباحية، في أطباق فضية دائرية، أول ما يهبط للمعدة في صباح عمل كئيب، وأمتع مذاق هو غرته دوماً.

من السينما للمسرح ومن المكتبات للمطاعم، أمسيات رمضان وهواء الليل على النيل وإفطار المركب متحرك، وحتى الكافيهات الفخمة استمتعنا بها رغم الهدوء القاتل ودونا ذكريات ليس لي أن أنساها ولا أنكرها ولا أشعر أني عشت إلا بها.

أما وقد آن الأوان فقد حان لها ولي أن نسأل كما عهدنا دوماً دون مواربة أو خجل، حلت لي كل جدائل عقدها وأفضيت لها بكل آلام روحي، سخرنا يوماً من أننا أشباه في الخيبة والألم ولا مكان بيننا للفرح.

حفل منير

بمرور الوقت بدأت شيرين في التنصل رويداً رويداً من جدائلها والبداية مواجهة ليست يسيرة مع العم حول حضور حفل غنائي، سيستمر ضجيجه حتى الثانية بعد منتصف الليل.

هي ترى أن ما يحق للرجال على النساء أن تمارسه، حاول إقناعها أن الرجال لا يتعرضن في مجتمعنا للتحرش مثلهن، ولن يلوك النساء سمعتهم

مثلهن، لعنت المجتمع والناس والرجال وحتى النساء اللاتي تعرفهن، قام وانتفض، وغضب عليها لأول مرة.

في الصباح كانت قد خرجت وتركت له الرسالة الأخيرة "سأحضر الحفل"، وكان الرد عبر الهاتف، "ولن تحضري للبيت"، وقتها بدأت تسير لأول مرة في طريق التحرر الكلي من العائلة، لحظة حسمت الكثير ورسمت مستقبلها.

وهنا بدأ الذعر يضربني، تلك التي أحببتها، قد تثور وتتمرد يوماً، لا قد يحدث بل سيحدث، أنا أعرف الفقدان جيداً، شعور أن تشعر أن أشياءك تؤخذ منك، وقتها شعرت أني سأغدو ضحيتها مثل عمها ولكن لا يتوجب علي إلا الانتظار حتى تقرر هي.

طلبت مني شيرين أن تبيت عندي، بعدما خجلت من صديقاتها وسأمت الأسئلة التي ستطرح، تلك لطالما ملتها وسئمت بل وبغضت من يطرحونها واعتبرتها تدخلًا سافراً في شؤونها الخاصة، وتعلم أني لن ألومها أو أعاتبها، خجلت من فكرة وجود نائل، لكنها تقبلته ثقة بي، لكنه خدعنا جميعاً.

تسلل لها بعد أن نمت بدناءة لم أعهدها فيه، لم يكن يعلم أني أحبها أو أن بيننا شيئًا، وكعادته حين عاتبته بعدها حملني اللوم بأني لم أخبره بحقيقة شعوري كي يخرجها من دائرة اهتماماته المتدنية الطبع.

حكت لي ما حدث حين طرق بابها كلص شريف، يطلبها لنفسه، لأنه سمع من صديق تجربة قاتلة لمعيدة في كلية الآداب تعيش في أمريكا، وتعرفت على شاب، عاد في إحدى الليلات يتطوح مثل الأفلام ويراودها عن نفسها،

ورأى أن المعيدة التي نجحت في إنقاذ نفسها بالحيلة والحدة، لكنها لن

تكون، مثل تلك القروية الساذجة التي انبهرت بحفل غنائي وخسرت من أجله أهلها.

لكن الجزء الذي لم يرو إلى نائل من هذه القصة التي عرفتها أكثر منه من صاحبتها الأصلية وصديقتي المعيدة الحسناء في كلية الآداب، إن نظرتها للبشر والحياة والتعاملات تغيرت جذرياً وباتت شبه شخصية معقدة لا تثق بأي شخص.

لقد تربت في بيئة متفتحة سواء داخل مصر أو بعد السفر، لاستكمال الدراسة، لكن في لحظة ما تغير كل شيء، لقد أجبرتها التجربة على الحذر والحيطة بشكل أكبر والخوف من البشر، لم تعد الابتسامات تخرج سهلة بل معقدة.

إنه شعور بغيض وكاره مثل هذا في ليلة واحدة قد يغير أفكارًا ومشاعر سنين نحو الحياة وليس نحو المغتصب الفاشل فقط.

وأما وإذا كانت الضحية هنا شيرين تلك الشخصية التي لم تخرج من كهفها إلا منذ وقت طويل، وتواجه سيلًا من الانتقادات والحروب من أقرب المقربين، بعد فإن الوطأ قد يكون أكثر حمية وشراسة وردة الفعل كذلك.

روت لي شيرين أن باب غرفتها دق في الثانية بعد منتصف الليل بشكل مفاجئ ومربك خاصة أنها خرجت للصالة قبلها بساعة فاكتشفت أني خلدت للنوم ومن ثم شعرت بعدم الأمان.

وحين أدركت أن نائل هو من يطرق الباب انتابها رعبًا حقيقياً كأنها تسير في شارع صاخب، لا أحد يستمع فيه للآخر، لا مجال للشكوى أو البكاء، ليس أمامها إلا أن تنتزع مطرقتها بيدها وتركل الجميع.

- ماذا تريد في جوف الليل (قالتها شيرين، بنبرة منتفضة بعيون تغلق وتفتح وروح قلقة متوترة تائهة).
- أريدك؟ (رد بثبات وثقة متيقن)
- هل جننت؟ أعلم أنك لا تشرب، أم قلت رخيصة بلا مأوى، كيف لعبت بك رأسك العفنة لتظن بي الظنون.
- إنها الرغبة يا صديقتي العزيزة، لا شيء أكثر من ذلك، الأمر بسيط للغاية، لم أكلف نفسي عناء التفكير.
- يا ريت كلفتها
- اعتبريني قد فعلت.
- أراك غبي متعجرف أحمق
- لو هذا هو العائق فهو لا صدقيني، ولكن
- بدون ولكن أنا موافقة ولكن بشرط.
- أنا تحت أمرك.
- حدثني عن تربيتك وبيئتك وأهلك وفصلك، من أين جئت؟. - أنا من عائلة غنية جداً في الصعيد، المنيا، لا تقلقين.
- ماذا عن خلفية أبوك، ألم ينشئك تنشئة دينية وكذلك كانت أمك. - كيف عرفتي؟
- صديقك كان يعدد مزاياك لي ويبدد مخاوفي منك، يا له من ساذج.
- وماذا يعني هذا؟

- يعني أنك تتنصل من أصلك، وتحاول أن ترسم نفسك بما ليس فيها، من أجل متعة وقتية. -

الحياة ما هي إلا متع وقتية.

- قل لي كيف ينظرون للسيدات في الصعيد، أباك، أمك.
- ماذا تريدين؟
- أعرف كيف ينظرون، الفتاة التي تترك عائلتها وتأتي لتعيش بمفردها في مصر، قل لي، كيف ينظر لها، أريد أن أعرف.

بهت وصمت وهي أكملت بثقة المنتصر:

- يعني أنه من المستحيل إلا أنك تنظر لي، أو هم علموك أن تنظر، لن تراني إلا ككلبة بلا ثمن، لو وافقت على عرضك ستحتقرها ولا يمكن حتى أن تصاحبها ولو صاحبتها سيكون لفترة وجيزة، ربما سأكون أسهل مغامرة في حياتك.
- لا صدقيني سأكون قادراً على أن أحبك (قالها وتكتسي ملامح وجهه ضحكة ظاهر خبثها)، ولفترات طويلة ستختبرين هذا بنفسك الآن.
- النساء من السهل الكذب عليهن، أنا أعرفهن جيداً أكثر منك.
- وأنا أيضاً أعلم ذلك، فلماذا تتمردين على بني جنسك، أنتحدين الطبيعة.

ابتسمت على مضض ونهرته:

- اخرج الآن وإلا فضحتك.

- لا يمكنك فعل شيء، أنت التي تخافين الفضيحة لو عرف عمك أنك تباتين ها هنا، في منزل الشباب، (ضحك ساخراً وقلب كفيه) انظري للدنيا يا سبحان الله، بأي منطق تتحدثين وأنت تباتين في بيتي.

وما لبث أن ارتفع صوت شيرين، بصرخة مدوية رجت في أنحاء المنزل، ربما وصلت لبيت العم، لا أدري، لكن لا اعتقد، صرخات النساء لا يتميز صوتها، لا يمكن لك معرفة صاحبة الدوي المفزغ، إنها الشتات، الشك المطلق، سلبته القدرة على التفكير حتى في طريقة وأسلوب ردة الفعل.

ودون أدنى قدرة لنائل لم يفعل إلا الدهشة البالغة والهروب وعلى وجهه ملامح ممزوجة من الخوف والصعقة، شعور لم يختبره من قبل، بينما استيقظت أنا على وطء الصوت المرعب، لم أكن أفهم شيئاً واحتجت الكثير من الوقت كي أدرك حقيقة ما جرى، ومصدر الصرخة لكن ملامحها الحادة المرهقة عرفتني بها.

توارى نائل إلى غرفته ورفض الحديث "ليس الآن"، بينما طلبت من شيرين أن تهدأ قليلًا لكنها امتنعت وتركتني دون أن تتبس وغلقت الأبواب وأنا أقف بينهما لا أدرك من بعد جهلي شيء.

في الصباح، دعوتها لتناول الإفطار في إحدى المطاعم الهادئة لفهم ما جرى، بينما اكتست ملامحها بحزن وآسى حقيقيين ورأيتها في حيرة نادرة من أمرها وكأنها تحمل هموم العمر كله.

روت لي يومها سنوات البحر الوعر الأكحل، الذي أغرقت فيه طفلة، منحتني هذه الحادثة وتلك الليلة السوداء الكثير من الحب لشيرين وأرتني وجهها الحقيقي وما خلفه من مشاعر ظلم متبادلة بيننا.

حدثت المواجهة بيني وبين نائل في اليوم التالي، نهرته واحتقرته وأشعرته بالنقص، لم ينف الشعور بالخطأ لكنه كعادته حاول التبرير، ولكل شيء في صراعات البشر عذر.

- لا تحاول أن تقنعني بأنها ملاكاً من السماء، لقد تركت بيت أمها وجاءت لمدينة غريبة عليها ثم تركت بيت عمها.
- لا أنت أولًا لا تحاول إقناعي بأنك المدافع الأول عن العادات والتقاليد في المجتمع، لا يهمك ماذا تفعل هي
- يهمني طالما تشاركني في منزلي الذي ندفع إيجاره سوياً
- أنت تهذي ولا تقول لي أنك ضد فكرة تواجدها في المنزل لأنك تحافظ على الأخلاق أنت ضدها لأنها صدتك
- أنت تحبها إذن (قالها في صيغة اتهام)
- هل اتهام، لست منه بريء ويشرفني أني أحبها (هنا ظهرت هذا

ملامح الاعتذار على وجهه كأنه حاول سرقة شيء مملوك للغير)

- وليكن اعتذر لك، لكن انظر للمسألة بكل حيادية، ليس طبيعياً أن تشاركنا فتاة في مثل جمالها المنزل، نحن بشر في النهاية يا صديقي.
- نائل، أنا لست ملاكاً، ولكني لا أحب رؤية نفسي مخطئاً، وأن كل البشر يخطئون، كل ما في الأمر أني أحاول تقليل كمية الخطأ طول الوقت، يمكن أن أكون ارتكب أخطاء أكثر منك ومن الناس، ولكني

لا أفهمك - ولا أفهمهم، قد يراني عم شيرين مخطئ ونذل وأكثر من ذلك وأمها، لا أنكر، ولكن نيتي عند استضافتها لم تكن ارتكاب خطأ. - صدقني، لم أكن أعلم أن هناك شيء بينكما

- صدقني أنت، هذا ليس عذراً، ياريت لا تحاول التبرير، أنت
- هكذا تحاول إشراكي في جريمتك، حال غفرت لك أو بررت، لا أريد فقط إلا عدم تكرار هذا الخطأ حتى أرحل من هنا.

بالفعل ضربت فكرة تغيير السكن في رأسي، لكنني لم أكن أرغب في الابتعاد عنها، لقد أثبتت أنها قادرة على أن تكون حصناً منيعاً منيفاً، هي قادرة وقوية بما يكفي لإخماد نيران قلقي عليها لكنه أمر التعلق والوله، وهذا لا يمنع شيء من الخوف عليها.

تجاوزت الموقف مع نائل ولكن بعواقب حزينة، علاقة فاترة وابتسامات صفراء، وحديث شحيح على قدر الحاجة.

لم أحب ولم يحاول فتح أبواب جديدة للحديث، كان يود أن يتحرر من إشعاري له بالذنب، وأنا أردت الابتعاد عن رؤيته كي لا أشعر بالغثيان، كلًا وجد غايته في البعد.

بادرتني شيرين وفعلتها، قررت الخروج من منزل العم والاستقلال في المعيشة، لا شقيق والدها يمتلك الهيمنة الكاملة في التحكم بمصيرها ولا أمها تجبرها على شيء.

تسقط أمها أمامها في أي نقاش بالحجة، وبخفة الظل وبشعور قديم بالذنب، لم تكن تدركه كلية إلا عبر لسان شيرينياً مبين.

اختيار شيرين بالاستقلالية لم يكن مثيراً للشك أو الريبة أو حتى القلق من جانب الأم أم العم، ذلك الذي دانت له بفضل ولوج الجمل في سم الخياط، ولوجها في فج الخروج من السجن، حل جدائل عقدت لسنوات.

حتى وإن تحول في رأيها بيت العم لسجن آخر في لحظة ما، فإنه أقل وطأة والخروج منه أكثر يسراً، لم يكن عمها مثل أبيها، ديمقراطياً سهلًا كيس فطن، بعيد عن نزعات الأب المتطرفة، نقيضان تحولا لشقيقين.

أما أنا فكان علي الانتظار والاصطفاف في خط السجانين الذين ستتركهم يوماً ما.

نهال صديقتها المقربة فتاة بلا عقد بشوشة أغلب الوقت، من تلك الطائفة التي يحتاجها أمثالنا من غير الأسوياء، كي تزيح الغصة من الحلق وترسم البسمة في أوقات صراعات لا تتوقف.

لم يكن لي معلومات كثيرة عن نهال سوى أنها أكثر شخص موثوق ومحبوب في محيط شيرين وهذا شهادة تعادل الأيزو والكرة الذهبية ونوبل، في معايير شيرين.

عرفتها نهال على سكة بيت المغتربات، هي الأخرى قادمة من الإسكندرية، ولكن من عائلة أكثر تفتحاً وروح أقل عقداً وتاريخ ليس به من التشوهات النفسية الكثير.

شرعت في الإعلان عن تحولها بتغيير صور تطبيقات المحمول واتس أب وفيسبوك وإنستجرام لصورها من بيت للمغتربات، هذا السجن الجديد

التي توهمته غرفة في فندق خمس نجوم أو جناح ملكي مطل على لسان رأس البر.

ما اختبرته كان أعظم مما تخيلت، تجربة جديدة في قسوتها، لغة جديدة أتيح لها تعلمها وتكوين جزء جديد من شخصيتها التي باتت العنيدة..

تجربة بيت المغتربات، حملت هماً أكبر وسجناً لم تختبره من قبل، في القرية ورأس البر كان يمكنها الخروج وقتما شاءت إلى أناس تعرفهم، أقارب وصديقات، في البيت هناك مواعيد محددة ولسان زلق حاد، أدخلها في صراعات ومشاجرات وعلمها لغات وألسن لم تكن لتقولها قبل ذلك، هذا رغم أن علاقتها بمشرفات البيت بدأت بشكل مثالي، إلا أنها وقتها لم تدرك جيداً حجم الخطر الداهم من الزميلات والمشرفات أنفسهن اللاتي لم تكن تعرفهن جيداً.

بعثت لي شيرين في إحدى المرات تشكو من جحيم الدار تقول :

- في إحدى المرات اصطحبت مي أختي للمبيت عندي في حجرتي وعلي سريري، هذا أمر طبيعي للغاية، وحق إنساني طبيعي التزاور، الإنسان كائن اجتماعي، في النهاية أنا أعيش وسط أغراب، المكان نفسه يسمى بيت مغتربات.

طلبت الإدارة مني معرفة عدد الأيام التي ستبيت فيها معي وأصروا على أخذ أجرة عن تلك الليلة، كانت ليلة واحدة، عليها أن تعود في وقت محدد وتنام في ساعة محددة، مي لم تتحمل البقاء لفترة أطول، روحها متحررة أكثر مني، وجيلها يضرب المجتمع بأقدام أكثر صلابة وجسارة منا.

مي تعجبت من قبولي بهذه الأوضاع لكني كنت مجبرة، لم يكن هناك بد جديد لم أهرب إليه، في النهاية تمرست على مناطحة سيدة الدار القبيحة والمماطلة معها في كل شيء، مهما نفذت التعليمات يكون ذلك بعد أن يطفح بها الكيل مني.

بمرور الوقت ومع الانخراط في عملها سواء في الصحافة أو الفن في وقت لاحق، كان يتوجب عليها العودة متأخرة، عقب إجراء حوار أو بسبب حدث معين أوجب عليها السهر أو لطبيعة العمل في ساعات طويلة أثناء التصوير.

للمرة الأولى تحملت الكلمات القاسية، وكأن من تحدثها أمها، لكن في الثانية لم يعد مقبولًا، تطاولت المشرفة بكلمات غير مقبولة من طراز "مع من كنت" و"اذهبي بيته أكملي سهرتك معه"، ربما سبب ذلك خروجها من سيارة أحد زملائها الرجال في ليلة ممطرة في فبراير، في فترة جاورت عيد الحب.

نفرت واستنكرت أن يوجه إليها هذا الاتهام الرخيص، ثارت لم تتحمل، المشرفة تحولت إلى أمها وخالاتها وصديقاتهن وكل من كبتوها يوماً وسمحوا لأنفسهم بالتطفل والتحكم في حياتها.

بدأ لسانها يستسيغ علو الصوت، والألفاظ الجارحة، التي اعتبرتها وسيلة لرد الطعنات، استخدمت جسدها الممتلئ وثقتها اللا متناهية ووثبت في إحدى المرات على المشرفة وكادت أن تفتك بها، لكن صديقاتها اقتربن وخلصوا العجوز من بين براثنها.

لم تكن من طينة بنات الشكوى الهادئات وسارت عبر الزمن وحشاً، ومصدر من مصادر القوى في الدار، وظهر من لا ظهر له، شهر تلو آخر وساعة بعد ساعة، تقمصت القروية البريئة دور المشاغبة الأولى واكتسبت باللسان السليط وباتت الشرارة التي يخشاها الجميع، من تمتمة غير مسموعة لإهانات شفهية ولفظية.

بالتزامن حاولت معها أمها لتجبرها على الزواج من مهندس ميسور الحال، عريس مثالي بالمعايير التقليدية التي بغضتها وفرت منها يوماً ما، لم تكن تقبل أن تجلس مع أحد وكأنها قررت أن تهاجر إلى الأبد وتبدل جلدها بالكلية.

في لحظات التجلي والاستمتاع الشتوي بصوت فيروز والشيخ إمام وعلي الحجار، كانت تسهر مع زميلة لها يتبادلان الغناء حتى ساعات الفجر الأولى، ورغم هذه الهيمنة لم تصنع أي عداوة إلا مع من كن يبدأن باستثارتها، بل وكانت تزيد باستفزاز المشرفات.

وفي الوقت التي كانت فيه المشرفات لا تتممن على النزيلات في الدار، تذهب إليهن وتجبرهن على القيام بأدوارهن وتهددهن بأقاربها أصحاب المناصب العليا، ويبدو أن ها هنا كانت بدأت ممارسة هواية التمثيل القديمة.

ولم يكن تهديد المشرفات بالاتصال بالأهل ينطوي عليها، لأنها تدرك أن أهلها لا يمتلكون رادعاً قوياً لها ومن ثم فهي بلا نقطة ضعف، إضافة لأنها من الأساس لم تكن من اللاتي يأتين بالوعيد، بل تنتفض أكثر وتخطط

للانتقام وفي النهاية فإن العاملات الفقيرات في الإشراف كانوا يرتئوا أنه من الأفضل مراضاتها خاصة بعدما بدأت مظاهر الكسب المالي تظهر عليها وبدأت تجود عليهن بعدما تحصلت على راتب ثابت، جعلها تفكر في ترك الدار، ولكنها أجلت الخطوة، خوفاً من الوحدة، وببقايا تخوف قروية حديثة العهد بالعاصمة من الذئاب، لم تنس مشهد نائل.

مع الزميلات فكان طعامها يسرق حتى لو وضعت أقفالًا على الثلاجة، ملابسها استباحت من الزميلات، اختبرت السب والإهانة وعرفت النارجيلة والسجائر، وبمرور الوقت لم تجرؤ أحدهن على سرقة قصاصة تخصها.

ورغم تحولها المادي لكنها قادت ثورة زميلاتها ضد مطالب أصحاب الدار برفع الإيجار الشهري، وفرض زيادة في السعر وصلت في إحدى المرات إلى 750 جنيهاً.

سبب الزيادة كان نزوح مجموعات من السودانيين إلى القاهرة، ورغبة صاحب الدار في الإطاحة بها هي وصديقاتها بشكل غير مباشر، رغم أن الطريقة على حد وصفها كانت "مفضوحة" و"بلدي" إلى أقصى حد.

إبان الحرب العالمية فرضت قوانين عسكرية تمنع زيادة الإيجار حتى انقضاء الحرب ولكن بعد مرور ثمانية عقود، فإن هذا الحق لم يعد ممنوحاً.

مبلغ السبعمائة والخمسين جنيهاً تحول بالتقريب إلى ألف جنيه دفعة واحدة، يريد صاحب ال حق أن يلزمهن بدفع فواتير الكهرباء والمياه، وإذا كسر صنبورا أو احتجن سباكا لا يحق لهن إحضاره إلا في وجوده وبمواعيده التي يحددها، ضغط متزايد كي يستبدلانهن بقوم أكثر منهن مالا وأعز نفراً.

ثابرت وتحدت، وأحضرت سباكاً واثنتين وسبت المشرفة وتحدتها، ماتت الملائكية القديمة التي جاءت من الريف بصوت رقيق، لا يفارقها تعبير "حضرتك" إلى صلف رذل، تعبيراته حادة وقاتلة ومؤلمة.

وما لبثت شيرين أن ارتبطت بمواعيد عمل في جريدة كي تنفق على نفسها، وحلم الفن يراودها وهي تجيب هيت لك، تنتظر رغماً عنها ولا تستعصم، وترقت اقتصادياً وتحسنت أحوالها، ونجحت بعد زيارات ومناقشات وتدخلات من عمها حازم أن تقنع أمها بطلب جزء من ميراثها كي تتمكن من شراء شقة من شقق مشروعات الإسكان الاجتماعي كي تتحرر من متاعب الدار أو العيش غير المستقر، ولكن بمجرد أن حصلت على مبلغ 200 ألف جنيه، قررت التسويف والبقاء في الدار لحين إشعار أخر.

تحول شخصيتها وتجرأها ولسانها المعدل بالجرأة والجسارة في طلب الحق، كلها عوامل ساهمت في عملية البيع رغماً عن أمها، التي كان مجرد الحديث معها عن أمور مثل هذه في أوقات سابقة محرماً ولا مجال لمناقشته.

دعتني ماهيتاب بعد عرض فيلم "ضباب سعيد" الذي فشل فشلًا مذرياً، تكفي كآبة الاسم، السقوط يدون في كتب التاريخ، حقيقة سخر منها المختار ولكنها أبت أن تقبل بها أو تحولها لمزحة.

علاقتنا لم تكن رائقة لكنها أيضاً ليست عدائية، كنت دوماً على بعد خطوات منها، لا أفهمها ولم اعتبر تفهمي لها أمراً ضرورياً، رغم أننا نعمل

على نفس السيناريو ونتشارك في نفس العمل، ونكون ورشة يديرها الأستاذ.

طريقة تفكيرنا اختلفت وتشابهت، أما الأولى فكانت الاسترسال النسائي والتفاصيل الدقيقة، التي لا تهم من الأساس، والتي نظرت لها بإعتبارها روح فنها، أما التشابه فهو في خلق أرواح بها قليل من الشر والكثير من الألم والضعف والتوجع والبحث الواهي عن السعادة.

لكنها بعيداً عن تلك المنطقة كانت حادة، لم أفهم كيف يمكن أن تكتب عن أشخاصاً لا يشبهوك، ماهيتاب فعلت ذلك، المختار أكد لي أنها لها ألف وجه ولا تكذب حين تستعير أحدهم.

لم أفكر فيها كأنثى يوماً، لا قبل ولا بعد الوفاة، هي مرهقة إلى أقسى حد في العمل فما بالك بالحياة، سيكون عذاباً.

ماهيتاب متحكمة من الطراز الأول، ليست مقاومة حسناء تعاني لتثبت نفسها للحياة مثل شيرين، لكنها الحياة الصعبة نفسها التي نعاني للعيش فيها.

توقعت عندما طلبت الجلوس معي بعد العمل أنها ترغب في مناقشة فكرة سيناريو جديد للعمل عليه، تعويض الخيبة، لم يكن بيننا مساحات شخصية، لم أكن أريد أن تفهمني، هذا حال افترضت أني أفهم شفرة روحي من الأساس.

جلسنا وزفرنا دخان السجائر، أكثر ما أعجبني فيها طريقتها الارستقراطية في التدخين، حيث كانت تضع السيجارة في إطار أسود بلاستيكي، كلاسيكي قديم، هي عاشقة أفلام قديمة وشخصيات قديمة مثلي.

- يعجبني كثيراً هذ ا (تلعثمت وابتسمت، محاولة للمزاح لإخفاء شعوري البغيض نحوها) ما اسمه؟ -

ابتسمت وسألتني: هل تريد واحد؟

- سواء أريد أو لا أريد من الأفضل معرفة اسمه، كفاكي أخبريني ما اسمه، سيكون حتى من الصعب علي البحث على الإنترنت عن اسمه أو إيجاد شخص يتذكره، مدرس الرياضيات لدينا كان يدخن

به، وكان زملاؤه يسخرون منه، لأنه يريد بحسب رأيهم تغيير جلده، لكنه كان يحتقرهم.

- اسمه cigarettes pipe أن تضع نفسك فوق شيء، أنا أدخن ولكن الذي يبدو لفمي هذا الإطار المعدني (أرسلت رسالة مبطنة حسبتني فهمتها)
- ماذا تقصدين؟
- لماذا لا نترك مختار؟ يرى الناس المختار هو البايب، رغم أنك الدخان الحقيقي (قالتها بجرأة وتطفل كأنها أم تطلب من شاب خليع أن يتوقف عن مطاردة ابنتها)
- ولماذا أتركه؟ (اختارت المواجهة المباشرة وفضلت الحرب الباردة) - لتبني نفسك؟
- لا لا لماذا تريدينني أنت أن أتركه؟ هل تغارين مني؟ (قلتها وضحكت بشكل هيستيري)

ابتسمت بخبث وزفرت دخانها وقامت:

- محمود الأستاذ غيَّر في الفترة الأخيرة الكثير من فريق عمله، مدير التصوير وعدد من مساعديه، الذين يصغرونك وذهبوا لبناء أنفسهم بعيداً عنه.
- أنت تدركين أن علاقتي به إنسانية أكثر منها علاقة عمل. - هل ليس لك طموح؟
- معذرة لماذا تريدينني أن أرحل؟، لا يحق لك توجيه أي سؤال إلا حين تجيبني بصراحة على سؤالي.
- أفكارنا مختلفة، لست مثلك ولست مثلي، لن نتفق، وهذا طبيعي لا يوجد شخصان مثل بعضهما البعض، لا يمكن أن نتشارك في كتابة نص أدبي ونحن نبغض بعضنا البعض

(ابتسمت وضحكت حتى ثملت).

- أنت تراوغين، أشرت بيدي تصديقاً وسخرية في آن - كل ما تقوليه صواب ولكنك لا تقولين الحقيقة كاملة.
- لا أحب اقتران أسماء بإسمي، أنت أو غيرك، لست أقل ممن تكتب أسماءهم منفردة (شعرت فيها صلف وكبر مرفوضين، قررت المقاومة كمن يلفظ النفس الأخير بعد أن خسر كل شيء).
- المختار لا يترك سيناريو إلا وغير فيه الكثير بل والكثير جداً، هذه

حقيقة يدركها الجميع، لا تعتبري نفسك في حضرته كاتبة مستقلة.

- قل لنفسك يا أخي، أنا زوجته ويمكنني تقبل هذا، أما أنت فلماذا تقبل؟، بالحق لماذا توقفت عن كتابة روايتك التي تنوي كتابتها وحدثتنا عنها لأسابيع.

شعرت بغضب شديد، ضربات من كل اتجاه، من عقل خبيث وذكي ويدرك هدف كل كلمة ووطئها، هي بالتأكيد تعرف الطريقة التي توقفت بها عن الفكرة من الأساس.

- أعدك لن أضايقك مجدداً بأسئلتي ولكن اعترف لي الآن بأنك ضعيف وترى نفسك شخص قليل للغاية. - لا أحد يقرأ الروايات يا عزيزتي.

ابتسمت ساخرة: هل تصدق ما تقول، من قال لك، المختار الذي كتب 20 رواية.

- لكنه توقف الآن، لم يعد يعجب الجمهور بجديده وكلهم يبحثون عن قديمة ويتغنون به، أحدث ما يراه الناس له ويعجبون به فيلماً أو رواية عرضا من 20 عاماً على الأكثر. -

وما أجبرك على العمل معه إذن.

صمتت وبهتت، بيد أنها حاولت إخفاء ضعفها وفشلها في الرد، هنا هممت للرحيل كي أترك الساحة منتصراً ولو بكلمة رغم انكساري الداخلي من وحشية حديثها الذي غبر أسواري وشرحني بمقراض أفتك بضلوعي بلا رحمة ولا هوادة.

هممت للوقوف وتناولت أوراقي وسجائري وولاعتي، وأمسكت بالبايب، وضحكت على مضض

- سأتركه ولكن حين أريد أنا، وليس بأمر منك، ما أشعر أو ما لا أشعر أمور ليس لك التدخل بها ولن أسمح بذلك على الإطلاق، لم نسبر أغوار بعض يوماً ولم نغني سوياً ولم نصفى، لا أدري السبب ولا أحاول البحث عن إجابة مثلك.
- ستتركه وسيتركنا وسيتبخر يوماً، كل شيء حي خرج من الماء، وفي النهاية يتبخر الماء وتتوقف الحياة.

****

بحثت طيلة عمري عن قيمتي واعتززت بها لأقصى حد، حتى مات أخي، هنا تتطفىء الروح للأبد، لا أحب تمجيد نفسي، أشعر دوماً أنه ينقصني الكثير، إذا لم يكن الجودة فإنها السعادة، يجب أن أفعل ما يمتعني، وبما أني فقدت سكر الفرح منذ زمن، فلن أجد الحافز والدافع، وإذا آمنت بنفسي، سأعود هذا الحالم القديم، لكنه الموت للأسف.

هل تحولت إلى جثة هامدة، أحببت الإبداع والتأليف، ثم ما لبثت أن تحولت لمجرد ترس ضعيف مهترىء في ماكينة لا تتوقف ولا تلحق ترى تروسها من كثرة الحركة، أنا غير موجود إذن، موظف يريد أن يبدع مستحيل.

لم تكذب في حرف يتيم، وكأنه وحي الحقيقة هبط عليها، جاءت بعدي بسنوات، وإسمها الآن يسبقني، أفكارها حاضرة دوماً ورؤيتها واضحة، وأنا لا أؤمن بما أقدم ولا بقيمتي من الأساس، نفس الشعور القديم بالضآلة، سيأخذون مني كل شيء وسأبقى وحدي أتحسر وانتقد، لا يهم ماذا تفعل، يهم أن تؤمن بنفسك، ثم تبدأ المناقشة حول المحتوى.

جلستها كانت مؤلمة، قتلني بنت الخبيثة، مثلما فعلها قبل مئات السنين، ابن عمار مع ابن زيدون، فقضى عليه، ولم يكن للشاعر الأندلسي روحاً للمقاومة، لكنه بعده قضى على المعتمد بن عباد أيضاً، كفن المختار كان ينسج على مكث.

لم أشعر بالغبن في سنواتي الطويلة في العمل تحت إمرة المختار، لكن حين ظهرت ماهيتاب بغضت هيمنتها وأخذها دور البطولة، ليس حقدا ولكن قناعة مني أني أتفوق عليها في أفكاري وطريقة التناول وقراءة البشر، أو لربما مقتا للطريقة التي تفكر بها أبطالها وأغلبيتهن من النساء.

لا يعني هذا أنها لم تكن أسرع مني، ولكن منذ متى أسعدت العجلة أحداً، يتطلب كل عمل فترة كي تتعلمه ثم تتقنه وبعدها تتحول لأحد أساتذته، فما بالك بالفن، لكن هناك رأي آخر يرى ضرورة أن تجرب وتتعلم، وتدون كل فترات عمرك بفن يعكس روحك الحقيقية وقتها.

زهدت ورغبت، تركت وتحينت الفرصة وانقضت، لا مجال للمقارنة بها الآن، في المختار كانت لنا مآرب أخرى وكل لعب بأدواته.

إجمالًا، لا يهم رأيي في ماهيتاب إذا ما كنت متفرجاً عادياً لكن مع ضرورة حدوث تصادمات بيننا بحكم عملي في ورشة المختار على الأفلام التي تكتبها، وحتمية التعبير عن آراء مضادة لها لم تكن الأمور لتستمر هادئة، ببساطة لم تقبل تعديلاتي ولم أحب العمل على ما تكتب وكأني صبي في ورشتها مهمته فقط تنفيذ التعليمات.

مهدت الطريق للمختار أني بصدد كتابة رواية أولى، لم أكن أعلم أن أول نص لي سيكون هو محوره الرئيسي، لكنه أصر على بقائي وحذرني من أن جمهور الرواية توارى في العقود الأخيرة، ما جعله هو نفسه يكتفي بالسينما، ورغم أني لم اقتنع إلا أني بقيت خاصة أنه استرضاني مادياً ووعدني بدور أكبر، ادعيت التصديق، وقررت الانتظار مجدداً، بقاءي سيكون كترس في الماكينة
دون أن أتحول لعنصر مؤثر وهذا يؤلم خاصة بعد حديث كئيب وفظ مع ماهيتاب، قررت بعده الخروج.

أجلت قبلها الاستجابة لطلب شيرين بمقابلة المختار، لم أكن سأتحمل خسارتها معه في ضربة واحدة، كنت أقرأ المستقبل القريب طالما بات جليا هكذا.

لو كان شخصًا أخر غير المختار لم أكن لأحزن خسارتها قادمة لا محالة، لكن ليس هذا العجوز المتصابي من يأخذ روح الدنيا الثائرة، شريكتي في عالم العقد المجدلة عبر سنين الصبى غير السعيدة.

وكأني بغير قصد حين قدمت شيرين للمختار كنت أرد صفعة ماهيتاب بطريقة تستحقها وبيد أكثر بطشا وغشامة.

أقر بأن هذه الأزمة قد خرجت منها منتصراً لا شك، تخلصت من علاقة شيرين التي مآلها هو الفشل إن عاجلا أو آجلا، ما أنا إلا باب حبس ستتجاوزه يوما كي تواصل رحلة الانطلاق والمختار ما هو إلا اختيار قديم سهل كان علي في لحظة ما وفي ظرف ما أن أتحرر من نيره، أما الميزة الكبرى لروحي وعقلي فهي الاستمتاع بعدم رؤية أو معاشرة ماهيتاب بوجهها الساخط المتعالي وقلبها الخرب. قل لي إلى أين

المسير في ظلمة الدرب العسير

طالت لياليه بنا والعمر لو تدرين قصيرًا يا فاتن

عمري هل انتهى أمري

أما وقد أن الأوان وقد حددت لشيرين مقابلة مع المختار، سيتفحصها كما تفحصتها، ولن يدع له العمر أو ماهيتاب فرصة للحب مثلي، لن ندخل منافسة رومانسية، سيرغبها وإن لم يفعل فقد مات، لم أتخيل يوماً أن هذا الأب الحنون سيتحول لخصم ولكن كيف خصم، وأنا لن أدخل الحلبة ولن أنقص عليه لمصارعته.

مهما لجأت إلى التأجيل والتسويف فستواجه الحقيقة في لحظة ما، قضي الأمر، هي تعرف كل ما يدور في قلبي وأنا أعرفها ولي أن أثق بها وأراهن

عليها، إلا أن لن أسمح بمشاهدة قلبي يسرق أمامي وأغير كل معتقداتي في لحظة ما.

- هل عملي في الفن سيؤثر على علاقتنا.
- ماذا لو فشلت في الاختبار؟ هل ستبحثين عن موهبتك خارج حدود الأستاذ؟
- طمنك الله، أهكذا اختباراته صعبة، أحسبه ومن حديثك أنت قبل أي شخص حبوب ومنفتح القلب.
- هو، كل هؤلاء الحنونين في الحياة، يتقمصون وجوه أخرى في هذا العمل يرسمون بدقة عملهم لأنهم يحبونه ويرونه الحياة، يمكنهم المزاح والسخرية في كل شيء لكن في لحظة العمل يستحيل التنازل مهما كنت جميلة.
- أنا لست جميلة تراهن على جسدها لتصبح نجمة، ومن العيب أن نتحدث معي هكذا.
- بالطبع هذا ليس مقصدي على الإطلاق وأنت تعرفينني جيداً، لكن هذا النوع من النقد يوجه لأهم النجوم وأعتاهم من كل الأجيال ولا يخجلون من الرد عليه، هل أنت تمثل بجمال المحيى أو بموهبتك.
- أنت لست مخرجًا لتحكم علي.
- أنا أريد مصارحتك بشيء (نظرت لعينها لفترة بإبتسامة مهترئة وقلب مقبوض)
- ماذا تريد؟

- أنا لا يمكنني الارتباط بممثلة، رغم أني كاتب سيناريو، أنا متناقض وغريب ومدعي ومريض بالإنفصام، زيديني نقصاً زيديني لكن هذا أنا.
- لماذا طوال الوقت تحاول إشعاري بأني سأتحول إلى مومس؟
- لا تحاولين يا تفاحة القلب اللعب بالكلمات معي، أنت تعرفين البحر إلى نهايته وتدركين عقلي أين يقف وكيف ينظر.
- وأنت أيضاً تعرف كل وجوهي وحقيقيتي وروحي، لم يعرفني أحد مثلك، حتى أمي وأخواتي وخالاتي.

ابتسمت وطلبت منها ساخراً أن نسألهم الآن، فما كان منها إلا أن ردت علي برد أكثر نقد وسخونة.

- اذهب لهم أنت أيها البطل الهمام واجلس معهم، يصنعون أشهى الأطعمة ومسليين إلى أقصى حد، أنا ابنتهم، خفة الظل والروح، وستجد في بناتهن ملكات جمال رهن البنان والإشارة، يمكنني هنا أن أقوم بدور الخاطبة بنجاح سأحللك الجميع من كل الجهات وستفوز في النهاية إذا ما استمعت إلى كلامي.

لهجة امتزجت فيها السخرية بالحب بالحنق بصرخة قديمة أطلقتها منذ زمن وأرادت أن تستعيدها الآن، حاولت مهما حاولت أن اعتذر لها عن أسلوبي وحديثي، لكني لم أكن لأكذب أو أعش معاناة بسبب حبي، لم يكن ممكناً أن أفكر في جوف الليل بيني وبين نفسي هل قبلة هذا الممثل لها لم تجرحني ولم تكن حقيقية، كي يكون فن حقيقي يجب أن تقنعني قبلته لها، كيف أقبل؟.

لم أكرهها وحين ودعتها ظلت عينيها مفتوحة كشعلة تحرقني على ذنب الرفض، راهنت أن هذا الوهج لن ينطفئ مكسورًا يومًا ما، ولم أخسر رهاني والدليل المختار.

طوبى لسمير إن رضي، وأظنه لا يرفض، أن أروي قصة حبي لزوجته المستقبلية، ربما سأكون ثقيلا عليهما في القادم، ولكن إذا كانت لي إلاحة أمام أعينهم، أو ذكرى في رواياتهم رغم رهاني أن لي مكاناً وقر في قلبها، ولم يصدر له قرار إزالة مهما بدت عليه الشروخ والتصدعات وتهرئت أعمدته وظهرت على جدرانه الثقوب.

واختفت شيرين بالتدريج عن محيطي بعد أن تحررت من عمها وأمها وباتت فنانة لها مجتمعها الخاص، وصلتني أنباءها من بعيد ولم أكن أبحث عنها، غصة اردت أن أزيحها خاصة أني من رحل وترك، هل لا زلت أشعر بالندم، ربما.

حدثني المختار عن إعجابه بشخصيتها ولكن مع التشديد على عدم قناعته بموهبتها الفنية، وإنها بحاجة لجهد كبير، لكن نجمات كبيرات عملن معه وتحولن إلى أرواح ووجوه أخرى بفضل قدراته على استخراج الأفضل بكل الطرق الممكنة.

يمكن للمختار أن يستفزك إلى أقصى حد دون مراعاة لأي شعور إنساني أو روحاني، دون خجل أو حياء، رأيته بعيني يذكر فنانات جميلات بقضايا اتهمن فيها في شرفهن، ليستنفرهن إلى أقصى حد.

حتى معي أثناء الكتابة، شريراً يدرك كيف يستفيد بكل معلومة تتاح أمامه، لكنه حين تعاشره لا تلمح فيه إلا كل حب ومودة وخير وخفة ظل، التحول البرجماتي يحدث فقط في أثناء العمل، الذي هو قطعة من الحب، حتى الوسائل المستخدمة لإظهار هذا الحب ولو كانت خبيثة فهي وقتية ولهدف محدد.

لم ينس أستاذي الراحل أن يخبرني بصراعتها مع ماهيتاب، وتحقير زوجته للفنانة الواعدة بدافع الغيرة ورفضاً لشخصيتها المستقلة التي لم تشع عيناها دهشة وانبهاراً عند رؤيتها بل جرأت يوماً ما على مناقشتها في فكرة فيلم وإلقاء مجموعة من التحفظات المنطقية عليها.

رأت ماهيتاب بأم عيناها شيرين وهي تقترض من زميلاتها الصاعدات مبالغ مالية صغيرة في الأوقات الصعبة، وتركت لها في إحدى المرات مبلغًا ماليًا مع أحد العمال في إشارة إهانة واضحة، ولكن ما لبثت حبيبيتي القديمة إلا أن قامت بإلقاء الأوراق المالية في وجهها وأهانتها أمام الجميع بحدة غير متوقعة.

هي قادرة على التحرر من أي شيء حتى أحلامها، ما تحمله روحها من آلام وحزن يجعلها في أحيان عدة غير راغبة في تقديم أي مهادنات، تشعر أن كل التنازلات قد حدثت في زمن قديم، رغماً عنها، ومن ثم لن تكون الحياة وردية بسقوط جديد للكرامة.

أدركت وهي تواجه زوجة المخرج الكبير بكلمات فظة وإهانات واضحة أنها بنسبة كبيرة ستخسر الفرصة، ولكن المختار تحدى ماهيتاب من أجلها،

فأوقد نيران حرقته في النهاية وحولت حياته إلى جحيم، وجد فيها روح متحررة يتوق لأن تأخذه هو نفسه من الحياة المفروضة عليه.

إلا أن الجحيم الذي أوجدته شيرين في حياته مع ماهيتاب نفعه في رحلته للتخلص من الكاتبة الكبيرة، حتى ولو لم يعلن عن ذلك أو لم يبذل المجهود المستحق وأشعره أنه لا يزال محبوباً، رغم أن شيرين لم تبادله أي شعور،
لكن الحالة نفسها وإن كانت كاذبة فهي كافية ومشبعة له، كانت ذريعته ليصرخ أنه لا يزال حياً، أجرم بإستغلالها هكذا ولكنها انتقمت منه.

أيام المختار الأخيرة

تدهورت علاقة المختار وماهيتاب في الأيام الأخيرة لكنه كان يكبت كل شيء، بمزيج من اليأس والألم الذي اعتراه في تلك الأيام.

حاولت أن أقابل الأستاذ مختار في تلك الفترة في أماكن بعيدة، حضرت التصوير معه يوم ودعوته بعيداً عن الجميع لأعيده بسيارتي لمنزله، وباغته بدعوة عشاء، جلسة معتادة مجنونة سيحكي على مدار ساعاتها الليلية الكثير من الذكريات والمواقف الساخرة عن تلك الليالي التي نتاول الطعام فيها بعد منتصف الليل بساعتين أو أكثر أو حتى الي فجر.

لكنه اعتذر بالإرهاق وضرورة تناول الأدوية ودراية ماهيتاب فقط بالمواعيد، والارتباط بمواعيد مع دار نشر في الصباح، وكأنني أتحدث لشخص طبيعي عادي وليس المختار، أمورًا رتيبة مملة، وأشياء من قبيل كئيب لم يكن له به قبيل من قبل.

راسلته في ليلة خميس عبر الماسنجر، وطلبت منه أن يحكي لي عما يشعر به من ألم نفسي وليس عضويًا فأنا لست طبيبًا، إذا كان منحني الكثير في الماضي فعليَّ أن أرد الدين، هذا مبدأ الحياة، لكل شيء مقابله، هذا حقه علي.

في البداية اعتذر ونفى أن يكون هناك أي أزمة، بل اتهمني بأني أحاول مضايقته ولا أحترم حالته الصحية، احتد علي بكلمات مثل "يا أخي سيبك من الكلام دا أحنا مش عايشين في فيلم مفيش أي حاجة أنا رجل معدي السبعين وممكن أموت بكره.. مش طبيعي طول الوقت هكون بضحك وأهزر وأفرح وأسهر وأكل.. حل عن نافوخي".

كأنه أراد أن ينفجر كما طلبت منه ولكن انفجر مستنكراً ولم يصرح بشيء، كل ما قاله وطريقته وعصبيته غير المعتاد عليها، أثبتت لي ما شعرت به، قررت أن أنتظره حين يعتذر لي وقد كان.

لم يأخذ الأمر أكثر من يومين وفي الثالث اعتذر، وفي الرابع عانى من غيبوبة السكري، ومكث في البيت يومين، بل كاد أن يموت، هنا قرر أن يفصح عن شيء ما، فإختار الإنترنت، تلك الفقاعة المغلقة، التي تراقبنا فيها بلتذذ خواريزميات الذكاء الاصطناعي لتتجسس علينا لصالح؟؟؟؟... لا نعرف.

حدثته وقتها عن شيء غريب، برنامج يدعى المارد الأزرق، يقوم بتوجيه بعض الأسئلة إليك، ثم يعرف من هو الشخص الذي تفكر فيه، شيء خارق للطبيعة وللمنطق وباعث للرعب والخوف، كيف الأشياء التي نبطنها ولا يعلمها إلا الله، يعرفها ليس جنًا ولكن برنامجًا إلكترونيًا، أم أن الجن دخل إلى عالم الذكاء الاصطناعي.

كعادته فكر في تحويل الفكرة إلى فيلم أو رواية كي يراقب بها ردة فعل الناس عن الفكرة ويتحسس طريقة تطبيقها قبل أن يشرع فيها، ربما لم تجد أي ق „بول فلا يكلف نفسه عناء الإنفاق والبحث عن ممثلين وإقامة auditions ولا ينفق الملايين على التعاقد مع نجم.

ما أسعدني وقتها أني نجحت في إخراجه من حالة الحزن والاكتئاب ووعدني بأننا سنتاول عشاءًا خميسيًا مشعًا بأشهى الأطعمة، ربما سيكون الأخير على حد تعبيره الذي لم أحبه، ولم أطلب منه بالطبع أن يتحدث لي عن أي شيء مما حوله، لأني يأست من حدوث تغيير على تلك الحالة التي وصلت إليها روحه.

****

في تلك الفترة وبعد قرار الرحيل عن المختار، كنت قد حصلت على إجازة سافرت خلالها لمدة أسبوع للاستجمام بعيداً في الساحل الشمالي، سعيت وقتها للتفكير بروية فيما وصلت إليه، العمل الفردي بعيداً عن عالم الأستاذ الرحب، فكرة المغامرة التي خشيتها ولم تغرني بما فيها من بريق وزهو، الحياة فقدت روحها منذ زمن بالنسبة لي.. النشوة الكبرى لن تحدث أبداً.

وما توصلت إليه أن العمل مع الأستاذ مهما علا شأنه بالنسبة لي أو نهلت من خبراته وروحه وأثقلني فلا بد من أن أضع بمصتي أنا دون الأستاذ، كي أعرف أين أقف.

رب ضارة نافعة، أزمتي مع ماهيتاب كانت مفتاحاً ذهبياً للخروج، ربما هي التي وضعت هذا المفتاح في طريقي عمداً، إن كان صحيحاً أشكرها، وإن كنت خبيثاً وسيء الظن فلا بأس فهذا ما تستحقه..

بالإضافة إلى أن الفترة الأخيرة تحديداً شهدت تدخلات أكبر من قبل ماهيتاب التي باتت ترفض التدخل في السيناريوهات التي تكتبها، حتى الأستاذ بات عاجزاً عن وضع بصمته وتغييراته وملاحظاته وتعديلاته التي اعتاد عليها مع أعتى الكتاب، ولكني فضلت الاستمرار حتى قتلتني المواجهة الأخيرة.

طلب كتابة جزء من عملها لم يكن في رأيي إلا إحدى محاولاتها الخبيثة منها لإزاحتي، رسائل غير مباشرة مهينة، ثم جلسة صريحة ومباشرة في فجاجتها، هكذا تفكر النساء، نظرية المؤامرة، اعتقدت لفترة أني لو جاريت هذا النموذج من الفكر قد أتلوث به، لكن وقتها لم يسعني التفكير في اتجاه مغاير.

المسألة دارت في رأسي عديد المرات، على الشاطىء وفي سهرات مساء، أثناء تناول السمك أو التهام الأيس كريم، الصور تبدو واضحة ولكن السذج أمثالي يعانون من بطء في الاستيعاب، بينما ينتهز الخبثاء الفرص سريعاً.

استيقظت في صباح آخر يوم في إجازتي على مكالمة هاتفية من الأستاذ، توقعت أن يحفزني على مقابلة الخميس والسهرة المنتظرة، لكن صوته كان

حزينا، دون تعب أو إرهاق، ثمة يأس عميق يطبق على قلبه، حاولت معرفة ما يدور في قلبه.

- قل لي ما بك لم أرك يومًا هكذا، ولا يجب أن تكون أنت أبدًا هكذا. - هل لي أن أسألك سؤالًا وجوديًا؟
- أنت تسأل كما يحلو لك يا أستاذنا. - لماذا لم

تتزوج حتى الآن؟

- أنا ابن ثقافتين مختلفتين، أريد فنانة ومتحفظة، وقورة ومخبولة، يجن جنونها الجميل فتذهلني، وتطيعني في أدب يغمرني.
- أم أنك تخاف؟
- من الفشل تقصد؟
- لا من النساء ، سطوتهن ، خبثهن ، تحويرهن ، كذبهن ، نكدهن

(وانفجر ضاحكاً)

- هل لي أنا أن أسألك؟ -

تفضل؟

- ما الفارق بين ماهيتاب وبين الزيجات السابقة؟
- يااااه. فارق السماء والأرض.. هي من جيل لا أعرفه ولا أقدر على مجاراته، هي تسبقني بأزمنة، جعلتني أعيد التفكير بأشياء آمنت بها لدهور لأكفر بها.
- وأنا من هذه الأشياء بالطبع؟
- لا هي لا تكرهك
- هل سبق لها قبلي أن طلبت من أحد أن يكتب لها؟

- بالطبع لا، هي اقترحتك علي لأن علاقتنا استثنائية، تختلف عن علاقتي بأي شخص آخر، ولأنها تؤمن أنك لن ترفض لي طلب.

..... (صمت مطبق) .....

- لماذا سكت؟ هل لا تصدقني؟ أقسم لك هذا ما حدث وهذه كانت نيتي ولم يكن في نفسي أي شيء آخر
- ما الله يا أستاذنا، لا أقدر على تكذيبك ولا أجرؤ... صدقني أنا عاذ

سعيد أشعر الآن أنك في حالة أفضل، سأعود غدًا، هل تريد أي شيء من هنا

- الأشياء عندك لا يؤتى بها إلى القاهرة، نحن من يجب أن نطير لجميلات مارينا أنت تكذب مثل صديقك القديم بالحق كيف حاله؟

أنا لا أكرهه على أي حال.

- نائل جميل، لكنه قد يتحول إلى شيطان في لحظة ما من أجل هدفه، ثم يعود جميلًا لكن بعد أن تلوث ببعض الشر، ثم يبيت لغزًا لا تعرف إجابته.
- لكنكما أصدقاء منذ فترة ليست بالقصيرة.
- نعم منذ زمن نشبه بعضنا كثيراً، الاهتمامات وطريقة التفكير، ربما الدراسة اختلفت ولكن العمل لم يختلف، لكن الاختلاف في النظرة.
- قرأت له روايتين، شعرت بشر منقطع النظير، لكن أتعلم يمكنني أن أخرج عملًا له بمنظوري لكن وقتها لن تكتب سيناريو العمل ماهيتاب، سنتشارك فيه معًا.
- سيكون شيئاً ممتازًا.

- الفيلم أم غياب ماهيتاب عن العمل.
- الاثنين (وانفجر في كومة ضحك صادق به ثمة حزن مرير)
- اصغ لي لدي ندوة في الأسكندرية الأسبوع القادم أو الذي بعده يوم 30 المهم هات صاحبك القديم.

فكرة الالتقاء مع الأستاذ ونائل أعادت لي ذكريات طويلة، ولكني كنت متيقنًا من أن نائل لن يجعل الأمور تمر هكذا وسيضفي صبغةً لا تروق لي على القصة، إلا أنني بصدق سعدت، وليحدث ما يحدث.

رغم أن قاضيت نائل مرتين وخسرت، لكني كنت أسعد لنجاحه، لدافع إنساني بحت وصداقة قديمة، لكني لم أكن أحب ما يقدمه، هذا حقي.

الندوة كانت للحديث عن مسيرة الأستاذ وذكرياته عن أعمال قديمة، ماهيتاب ستحضر وعدد من النقاد والكتاب والفنانين، هو يستحق .. لا شك في ذلك.

استقبل نائل المسألة بصدر رحب، وكأن حقه يرد إليه، رغم أني قلت له تباعًا، الأستاذ لم يقصد الإهانة أو التقليل، لقد قال نفس رأيي، ولكن بشكل غير مباشر لكنه أصر على التفكير بعقله المحدود أو المسموم.

<u>ندوة الأسكندرية</u>

مدرج صغير يخترقه ضوء نهاري من زجاج النوافذ ومقاعد مليئة بالعشرات من جمهور ونقاد وكتاب ومهتمين بالأدب والسينما، أصوات

خافتة وضحكات مسموعة الدوي، يجلس الأستاذ في المنتصف على المنصة وعلى اليمين أنا وماهيتاب وعلى اليسار شكري.

الفتيات يتوافدن على المنصة للحصول على التوقيع الخاص بالأستاذ أو مبادلته أطراف الحديث ومناقشته حول عمل أو شخصية أو فيلم أو رواية، نقاشات معجبين تذكرني بالإنبهار القديم، وصدفة معرض الكتاب.

ثمة تغيير حدث في وجه الأستاذ، السن ولكن الروح حاضرة، خاصة حين تقابل هذه الوجوه الشابة التي تتدفق الدماء من وجهها النضر لتعكس شبابها المشتعل، الساعي لفرض بصمته على العالم، دون خوف أو حسابات.

ولكن ملهمهم بدا بعيداً عن حالته القديم، وفي اللحظة المناسبة، نهضت ماهيتاب مطالبة المعجبين بضرورة الابتعاد مع تقديم زجاجة مياه معدنية
للمختار كي يتناول الدواء، تصرفًا رصينًا من إبنة صوب والدها المريض، هكذا شاهدتها وهكذا كانت تتصرف.

بعد دقائق ما لبست قسمات وجه ماهيتاب تحولت إلى الصفرة الكوركومية بفعل الصدمة، قلق ممزوج بقليل من الرعب ظهر، حين أطل نائل بوجهه الخبيث مقتحمًا القاعة.

جلس نائل بعد أن تبادلنا الابتسام الأخوي الخفيف ووجه التحية للأستاذ الذي ردها بإبتسامة حزينة مراوغة وأشار له أن يجلس إلى جواره على المنصة، قبل أن يأتي سؤال أول من أحد المدعوين عن علاقتهما.

يقولون أنكما على خلاف هل أنتهت الأزمة إلى الأبد؟

- لا يوجد خلاف على الإطلاق، نائل تلميذي وابني (ثم نظر إليه مسرعاً كي لا يخيب ظنه) أم ماذا؟
- لا جدال في ذلك، يا أستاذ، لم يكن هناك شيء على الإطلاق، جئت هنا بناء على دعوة الأستاذ (معلومة مهمة أصر نائل على نقلها)، وأتمنى أن يسعني الوقت لطرح بعض الأسئلة أرى أن مكاني بين المدعوين ولكني سأطرح الأسئلة من على المنصة.

مالت ماهيتاب نحوي، وسألتني عن سبب حضور نائل، فأبديت دهشة ولم أرد أو وأشرت لها أن تستمع إلى الندوة، كانت تلك أول مقابلة بيننا منذ تركي للعمل مع الأستاذ، وتحولها إلى روح غريبة عني.

تذكر الأستاذ مختار الكثير من الذكريات في تلك الليلة، شعرت أنها ربما تكون بداية جديدة، يعود من خلالها إلى روحه القديم، ولكن لم أكن أعلم بوجود انتكاسة كبرى، تنسج خيوطها في روح نائل، ولماهيتاب دوراً فيها.

حصلت الأزمة الكبرى حين جاء دور نائل في توجيه السؤال، ليمارس خبثه بمكر شديد وهو يتحدث مع الأستاذ عن عمل قديم، لكن ليس بغرض النقد أو الإشادة، رواية كان بطلها رجلًا عجوزًا يشعر بالغيرة من أي شاب صغير بسبب فارق العمر كبير بينه (70 عامًا) وزوجته الثلاثينية.

وفاجىء نائل المختار قائلاً: هل حدث لك موقف ما حياتك، كنت تسخر من بطله في فيلم ما وتجعله مثارًا للتندر بينك وبين أصحابك ونعرفك من أصحاب الدم الخفيف.

- ماذا تقصد؟، هل تحولت لو حسنت الظن بالسؤال إلى أحد الأبطال السلبيين في رواياتي؟، لم أفكر في هذا الأمر مطلقًا.
- في رواية "المترددة" كانت البطلة تحب العامل وكان زوجها أكبر منها بعقود ولكن العامل الفقير يتفوق على زوجها الغني بالشباب والحيوية، كان يمنحها السعادة التي فقدتها مع الرجل العجوز.. والرجل العجوز يدرك أكثر منهم جميعاً وهنه وعجزه.

قسمات وجه ماهيتاب انبعث منها حينئ „ذ غضب شديد، بينما بهت وجه الأستاذ الذي حاول التغلب على هذا الموقف السخيف، والمهين في آن، فظل ثابتًا قاطبًا.

- ربما (روحه بدأت بالانقباض وعينيه فقدتا التركيز والبوصلة، بدا تائهاً عمن حوله) لا أعلم.

هنا زاد نائل من وتيرة الخبث وجرعة الجرأة المزودة بالتبجح، وخرج من جرابه اللعين أدوات شر لم أكن أحسبه لا يزال يحتفظ بها، أدوات يستخدمها في صراع مع صديق على فتاة أو رهان على نتيجة مباراة، وبدأ يشرح الموقف بصورة أكثر دناءة وكأنه يعاير الأستاذ بش „يء ما لم أكن أعرفه.

- الزوجة لا تحب الرجل العجوز، تزوجته لمصلحة ما، حين انقضت، (بسط يديه مبتسماً بثقة) بقي القرد على حاله - هذه هي اللعبة - نحن مجموعة قرود أدوات سلع بتاريخ صلاحية، كان يجب من

الأساس أن ننظر للصورة بطريقة أكثر عمقاً من الفرحة السطحية بمشاعر لا تبدو صحيحة أو صادقة.

هنا تدخل شكري، بتوجيه الشكر لنائل ووجه سؤالا للأستاذ عن أقرب كتاب السيناريو إلى قلبه وأكثرهم توصيلًا لأفكاره، وعدم رغبته احتراف كتابة السيناريو رغم الاشتراك فيه، ورغم كونه كاتب رواية.

جاءت ردود الأستاذ قصيرة ورتيبة وحزينة، لم يكن قادرًا على استكمال الندوة ولكنه أبى أن يخرج مهزومًا حتى ولو لم يفهم كلماته إلا ماهيتاب، التي وصلت علاقتها مع الأستاذ إلى الحافة، ولكنه بالتأكيد تسائل، كيف لهذا الدنيء أن عرف عن وجود أزمة.

ماهيتاب في النهاية من ذلك الطراز، الحريص طوال الوقت على الظهور بوجه ثابت قوي بلا مشاعر، لا يفضح أزمة أو يعرض الصورة للاهتزاز، روح ثابتة يهمها المظهر، وما حدث يلطخ ويشوه كل شيء ويفتح الباب للتأويلات، لقد حضر الكثير من المعارف، ومن ثم ستبدأ حملة التفسيرات والترجمات.

عقب نهاية الندوة أصر المختار على الذهاب معي بعيدًا عن وجه من تسبب في إهانته وطلب من ماهيتاب أن تذهب، وكادت أن تحدث مشادة بينهما قبل أن أقنعها بأن تصمت ونتركه في هذه الحالة، التي لا يحب الرجال أن يجدوا أنفسهم فيها مطالبين بفعل أي شيء لا يريدوه، حالة اللا كلام واللا تبرير شعور "أنا لست مطالبًا بأي شيء.".

وبالفعل تملص الأستاذ من قبضتها وذهبنا لتناول الغداء، كان خميسيًا وفي الأسكندرية ولكنه لم يكن بالسيناريو الذي رسمته، أسوأ وآخر مرة تناولت فيها الطعام معه.

باغتني قائلًا: هل تعلم إلى أين وصلت علاقتهما؟

- حضرتك تحدثني أنا! علاقة من؟ - ماهيتاب

ونائل

- هذا مستحيل، ليس لأي شيء ولكن لأنها تحبك - هي تريد الانتقام؟
- من ماذا؟
- نزوة أنت تعرف صديقك

(قالها بضيق وبإشارة إلى التوقف عن طلب التفسيرات)

- أيًا كان، هما لا يستقيمان معًا ولا أحسبها تخونك، أخلاقها أرفع من ذلك، لي عليها الكثير من الملاحظات، لكن الخيانة لا.. ربما تعرف شخصيات أعمالك بصورة أفضل، لكن هي لا ليست مثلهن، الغريب أني لا أتذكر أي بطلة لك خائنة.
- من أين جاءت هذه الثقة العمياء، ألم تقل لي يومًا أن علاقات نائل أغلبها مع متزوجات.
- هذا شيء يجعلني أزدريه لا أنكر، بالطبع ولا تظن أي شيء ولكني أتحدث عنها، لا عنه

- في تلك اللحظة كانت صورة نائل تزداد سوءً في نظري لكن احساس دفين رفض التهمة التي يوجهها إليه الأستاذ، إن نائل برغم كل مساوؤه لا يخون صديق قديم، ربما يريد إثبات شيء ما لشخص، اعتقد لكبره أنه تعمد توجيه الإهانة له يومًا ما، مجرد شخص بوجهة نظر أخرى اختلف معه، أسلوبه قد يكون غبيًا وحقيرًا، لكن ليس إلى هذا المستوى، أشعر أحيانًا بغبا ,,ء مدقع حين أحسن الظن إلى الناس

في وقت لم يعد فيه شيئ موثوق به، ولا أشياء تثير الدهشة.. كل المبيقات ممكنة.. في لحظة ما قد يتغير كل شيء.. مثل الموت.. لكنه انطباعي عن تلك القصة رغم مساوئ الملقاط نائل.

قضيت أيامًا أفكر في يوم الندوة الكئيب، لماذا حدث هذا؟، ولماذا؟، كنت حريصًا على الذهاب لنائل والتحدث معه، واعتقده أراد ذلك أيضًا، لا أدري من يجب أن ينتظر الآخر ومن يجب أن يمسك زمام بالمبادرة.

بعد أسبوع وقبل مباراة مهمة في دوري أبطال أوروبا كنت أترقبها، بتحضير السجائر والنارجيلة والمشروبات الغازية والمكسرات، دلف نائل إلى منزلي، ومعه لفافتان من الحلويات الشرقية، بسبوسة وكنافة، ونصف كيلو كباب وكفتة، سهرة تاريخية لا ينقصها شيء.

لكن الوضع لم يكن طبيعيًا، لم أستنشق روح جلساتنا القديمة، احتاج لمجموعة من النكات السخيفة التي أطلقها ليلطف الأجواء.

- هل ستمتنع عن تناول البسبوسة والكفتة مثل الغبي منتصر في الهروب؟

- لا لست حادًا إلى هذا الحد.. أنت تعلم - ببساطة
- ببساطة ماذا؟
- سأرد لك ببساطة على ما حدث في يوم الندوة، لأنه أمر بسيط للغاية.
- إهانة الأشخاص وإزدرائهم والتقليل منهم، عادتك القديمة ليست أمرًا سهلًا حتى لو بقيت طوال سنوات عمرك تفعلها، يبقى الخبيث خبيثًا.
- أولا اصمت ، ثانيًا هي التي جاءت لي
- ماذا تعني.
- أرجوك اصمت (قالها بغضب وهو يشعل سيجارة) لم نقم علاقة و

محرمة لا يمكن أن تفكر في هذا، لم أفعلها مطلقًا، ولا هي هذا من النوع.

- وما الذي دفعها إليك، وهي تعلم أن العلاقة بينك وبين زوجها ليست على ما يرام.
- زوجها الذي هو أيضًا علاقتها به ليست على ما يرام، غاضبة وحانقة وجميلة ومشتعلة، تذكرت حديثًا قديمًا دار بيننا في أحد ندواته، حين حذرتها من تلك الزيجة فإستنكرت بتأفف وربما من داخلها اتهمتني بالغل والحقد كأني واحدة من صديقاتها الخبيثات، في رأيها لأنها هزمتهن وفازت بالأستاذ.
- يبدو أن الجرم كان كبيرًا لتكون أنت العقاب.
- لا الأمر ليس هكذا، هي لم تأ ت لي لأني عدو، هي جاءت لي لأني ناصح أمين، هل نسيت أني من عرفتها عليه في البداية، هذا كل ما في الأمر.

- ليكن، لكن الأستاذ لم يهينك كما أهنته.
- لا لا أنا الذي أحدد فقط ما هي درجة تعرضي للإهانة والتجريح، هو أهانني بصورة أكبر وأكثر قسوة، استغل صغر سني وشهرته ومريديه وسخر مني، إهانته كانت واضحة ومركزة ومحددة.. أما أنا فماذا فعلت سخرت منه بشكل غير مباشر، ربما لم يفهمه أحد في الجالسين، إلا زوجته وأنت.

بقيت صامتًا للحظات، لم أعرف ما الذي يتوجب علي فعله، لن يفهمني ولن أقتنع بما يقول، مناقشة ليس لها هدف، ولكني فكرت "ألم يكن يستحق هذا؟".

- لتعلم كانت حانقة عليه أكثر مني وعبرت عن ندم لقرارها ووصفته بالأسوأ في حياتها لأنه دمرها.. تلك التي راهنت العشرات على الظفر به.
- وهل استمتعت بالانتقام، هل رأيته مشبعًا لرغباتك للحد الذي تخيلته أم شعرت كمن ارتكب جريمة قتل، ثم أراد لو عادت به عقارب الساعة دقائق إلى الخلف.
- ربما كنت قاسيًا.. لكني أخذت حقي بالطريقة المثلى وأمام الجميع، لم أرك غاضبًا هكذا حين استقبلت أنا الإهانة الأولى منذ عدة سنوات.
- لنتوقف عن الحديث ليس لدي ما أرد به عليك.. أنت واثق في نفسك وأنا أبغض أمثالك، الذين يرون كل شيء بتيقن وثقة، أنا لا أثق في أي شيء، لا بك ولا بالأستاذ ولا بماهيتاب.

أراد نائل الثأر من كلمة عمرها سنوات موقف بين أستاذ مشهور وصبي صغير، بحث عن كرامته الضائعة ووجدها بكلمات ليس كل ما بها خبث وبها جزء ليس بالقليل من الحقيقة.

المختار هو من وضع نفسه في هذا المأزق حينما قرر أن يهين شخصًا ما، في النهاية لا السرقات تنسى ولا الإهانات ولا سنوات الحب والعشم والثقة التامة.

نعم كنت غبيًا حين حذرني نائل ولم أصدقه، لا يمكن أن أرى نفسي في شخص ليس من جيلي، علي أن أتوقف عن الانبهار، المختار لم يكن ملائكيًا ولكني كنت ساذجًا إلى حد البلاهة.

بعد وفاة والدي في سن مبكر، تولى أخي مسؤوليتي، فارق خمس سنوات يجمع الحسنيين، حنان الأب وصداقة الأخ، حلمنا معاً بالكثير في المستقبل،
ثرنا على بعضنا وكرهنا بعض وركلنا بعض، لكننا كنا روحًا واحدة، صوتنا كان واحد لا يمكن لاثنين تفريقه.

لم يتسنى لي أن أعرف نائل عليه، رحل ونحن في السنة الأولى من الجامعة، مارست فعل البحث عنه في كثيرين، جسدًا وروحًا، ولم أجد مزيج من خفة الدم والحنان إلا في المختار.

ولكن ما بين أيامي الأولى في حضرة المختار، ورحيله، انقشعت الكثير من الغمامات، بدأت القصة بزهد وتبلد ورغبة ملحة في التعلم وشعور دائم بالامتنان وسعي لرد الدين، لكن بالوقت يتغير كل شيء.

لم يكن مثاليًا، بالمرة لم يكن، أخذت الطعنات على دفعات، ولم أتفتت مرة واحدة، لكني نظرت بروية وقت الطعنة الكبرى، فوجدت أني قد تحللت تمامًا، ولم أعد موجودًا دمي مباح روحي مباحة أنا إنسان مسالم لا يستحق شيء.

"يقول كل الكلام عريان ميزوقوش ويوصف الآلام للي متألموش"

أحمد فؤاد نجم

توهم نائل أني حين قررت مشاركته في كتابة هذا النص، أنه أصاب الهدف بذكائه وحججه في إقناعي بأن الأستاذ لم يكن الملائكي وأني الساذج الطيب الذي لا يفهم شيئًا ويتنازل طوال الوقت دون أن يأخذ موقفًا، ولكني منذ زمن زهدت في تبرير أي شيء لأي شخص، لا يستحقون جميعًا.

سأروي هنا، كيف كانت ساعات المختار الأخيرة، ولكن قبل أن حكي الساعات الأخيرة سأروي حدث التحول، من التلميذ المنبهر بالأستاذ العظيم، للناقم الحاقد الراغب في الانتقام، أكثر من أي شخص آخر.

في المشاعر لا يجب أن نتعود على القليل، لكنها ظروفي الخاصة منذ اليوم الأول، يتيم بلا أب ينصح ويوجه وقبل كل شيء يمنحك الأولوية.

في بيت جدي لو تكن لي الأولوية يومًا، سواء جد الأب أو الأم، كنت من الفئة الثانية أو قل الأخيرة، بعد الجد والخال والعم والعمة والخالة، اليتيم لا يجرؤ أن يطلب ويرضى بالقليل.

لم يكن ما عشته سهلًا، اليتيم لا يحق له أن يطلب يتعلم منذ اليوم الأول أن له الحق الضئيل في كل شيء، من كان منوطًا به منحه الأولوية ليس حاضراً.

لكنه يكتسب مناقب لا يمنحها الآباء يدرك حقه جيدا وحق الآخرين بالنسبة الصحيحة وبدون أي هامش عشم أو حنان أو محاباة يعرف المقادير جيدا من ثم يمكنه تحضير أشهى علاقات.

لكن حتى هذه المثالية في التوزيع لم تكن ممكنة فالحياة أثبتت لي أنها ليست دجاجة توزع على ٤ وركين وصدرين ولا هي ساعة حجز في ملعب تحت الدائري مقابل ١٥٠ جنيهًا يدفعها اللاعبون بالتساوي في دقائق اللعب واللعب.

تعودت على التنازل عن حقي لسنوات لكن معك أيتها الوجود لم يكن لي أن أتنازل عن أي شيء منك ولو للحظة أو بألف تبرير مهما كانت الفلسفات الموضوعة أو كيف دافع عنها الملايين لن تقنعني أو تحرك في شعرة وحيدة فهؤلاء لم يدخلوا عقلي أو يعيشوا بقلبي.

محمد أخي مثل لي الملاذ المن، الوجهة التي أكون فيها شريكًا في الحكم، سخر من كل شيء ولم يرهبه شيء يوما، زاهد ولكن في صورة ثائر.

عرفت معه معاني النقد والتفنيد دون تحقير أو تقليل أو عقد وسخرية، ما أوجعني أنه كان بجواري ولم أفهمه وبحثت منبهرًا عن الأب في الأستاذ وحين استشهد في ثورة يناير، افتقدت أنه الكنز الذي أهدرته وهو ملك يدي ولم أكلف نفسي التمحيص الكافي لفهمه ومعرفته.

امتنعت عن المشاعر، تجمدت قررت أن أموت مثله، خدعت فتاة جميلة عبر الإنترنت برسائل الحب والغرام، اقتراح لتقليل الألم والغريب أنني نجحت، رغم خبراتي القليلة وعدم استعانتي بصاحب المشورة نائل.

أحببت خفة دمها وقلبها وروحها الودودتين، توطدت العلاقة رغم أننا لم نلتقي يوما، وأقنعتها بالحب ثم ضللتها بمعلومات مغلوطة بأني متزوج ولي أبناء.

طلبت بطاقتي ولم أهرب بل أرسلتها إليها عبر الماسنجر، وسألت لتصدم، بعد توجيهات لمن سيتم سؤالهم من أبناء الحي، أبًا لطفلين، لماذا لم أرتبط بها بشكل طبيعي؟، ولماذا تعمدت صدمتها؟، ما الذي أمتعني وهي تتحدث لي في الهاتف تنتحب وتبكي؟، هل تصورتها المجتمع؟ وانتقمت منها، هل هي التي قتلت أخي وأنا ليس علي عذر لأني ولي الدم، أم أنها كانت الضحية الوحيدة والممكنة لممارسة فعل الانتقام في مجتمع ضاع الحق بين أهله.

لكني بعدها حاولت مد جسور الوصال من جديد، مرت ستة أشهر وقررت أن أصالحها وبررت لها وتفهمت بقلب أبيض سليم بلا عقد وتحولنا إلى أصدقاء رغم إنها ظلت تداعبني بكلمات بها الكثير من التنبيط خفيف الظل لأظل أشعر بالذنب، بقينا هكذا حتى تزوجت وقطعت علاقتها بي نهائيا.

كرهت شعور أنها تزوجت، ندمت لأني خسرتها حزنت لخبثي وكذبي وودت لو أنها كانت ملكي، وكأني شعور فقد أخي اجتاحني مجدداً حين تركتني.

ولكن منذ رحيل أخي لم يعد الندم من المفردات التي تدخل قاموسي، بت أخسر الأشياء براحة وطمأنينة ونفس منفتحة على فقدان المزيد، ما سيفقد ليس أغلى مما راح.

هنا بدأت سنوات الزهد والعمل والتطور ككاتب سيناريو حضر أكثر من ورشة سيناريو مع كتاب معروفين، وحضر عشر الجلسات التحضيرية مع المختار، على يده تعلمت الكثير وشعرت بالكثير من الحب.

عملت أنا ومختار على فكرة فيلم جديد، رسمنا الشخصيات والحبكة، اخترنا الأماكن وحددنا المواعيد، وأماكن التصوير واختبرنا الميزانية، قمنا بتحضير كل شيء، ولكن على حين غرة نمى إلى علمنا عمل نائل على فكرة مماثلة.

تماثل الأفكار لم يمنعنا من الاستمرار، الأحداث تتغير والشخصيات، نجبر على وضع بعض التعديلات كي لا نكون شبيهين، لديه قدرة على الإنجاز بصورة أسرع، وهنا سيأخذ السبق ويجهز علينا.

لديه لغة السوق والبشر، نفس الموقف الذي رويناه وكنا أصحابه وأهله الأصليين جذب له شعبية أكبر بمفردات أسهل وأكثر يسراً.

قررت مقاضاته وحاول المختار إثنائي، لن يفيد، ليس فقط لأنه دارس القانون ويعرف ألاعيب تلك الجزئيات بل لأن كم التغييرات الذي حدث على الأفكار لا يجعل أي وجه للشبه.

الأفكار نفسه ليست محمية بموجب القانون، ولكن العمل نفسه هو الذي يتحصل على الحصانة، والفكرة مثل القانون يمكن التلاعب عليها بألف معنى.

فشلت مرة وفشلت وعاودتها تارة أخرى، كأني أنا المدان المجرم الذي لا يحميني القانون وهو صاحب اليد العليا، المحمي بقانون سنه أمثاله.

رغمها حاول أكثر من مرة مخاطبتي وحثني على العمل معه، لكني رفضت ونهرته، "من غير الممكن أن أعمل مع سارقي"، هكذا كان ردي، بينما يواصل المختار تجاهل اسمي على الشاشة.

أثناء مشاهدتي لأحد الأفلام الوثائقية اكتشفت أن سرقة الأفكار والعمل على إعادة إنتاجها هو دأب البشر من يوم هبط آدم إلى الأرض وحتى يبعثون.

دونت عديد الأفكار المسروقة، قائمة طويلة وجناة لصوص من مجالات شتى، لديهم دين واحد، وضحايا لا يتذكرهم التاريخ، إلا ومضاً، ذكرى لا تنفع الحالمين بالعدل، وعرضتها على نائل الذي استقبلها ساخراً.

1790 تخرج فكرة ماكينات الخياطة للنور من قبل مجموعة أشخاص غير معروفين، قيل إن منهم من حصل على براءة اختراع.

1846 يحصل الأمريكي إلياس هاو على براءة اختراع أول ماكينة خياطة بعدما أدخل تعديلات وتحسينات على الفكرة الرئيسية، منها استخدام الغرز.

1851 إسحاق سنجر وشركته يسرقان الفكرة من إلياس هو ومن سبقوه، ليصبحا تاريخياً رمزاً لماكينات الخياطة في العالم بإنشاء أول شركة لإنتاجها.

1895 وقوع كارثة التهمت مقر مختبر الأمريكي نيكولا تسلا مما أدى لتدمير عمله بالكامل حيث كان يعمل على إرسال إشارة على بعد 50 ميلًا إلى ويست بوينت في نيويورك.

1897 الإيطالي جيجليمو ماركوني يحصل على براءة اختراع جهاز الراديو، بواسطة بإستخدام ملفات مشحونة إلكترونياً، تدعى ملفات تسلا، لنقل الرسائل عبر مسافات طويلة.

1943 تسلا كان غاضباً ولم يكن لديه المال الكافي لمقاضاة ماركوني ولكن بعد وفاته منحوه براءة الاختراع.

1903 تقدمت مصممة الألعاب الأمريكية، إليزابيث ماجي بطلب لمكتب براءات الاختراعات الأمريكي للحصول على براءة اختراع للعبتها "ذا لاند لورد" ذات الشعبية العنقودية بين الصغار.

1934 أعلن باركر برازرز، عن لعبة جديدة معدلة بإسم "مونوبولي" تحمل أفكار "لاند لورد" مدعياً أنه صاحب الفكرة التي هبطت عليه وحيها في قبو منزله.

1935 أصبح برازرز أول مليونير في تاريخ مصممي الألعاب في التاريخ بعدما باع في خلال عام واحد 20 ألف نسخة أسبوعياً وباتت "مونوبولي" الأكثر مبيعاً في أمريكا.

1908 تبدع شركة ناشئة فكرة جديدة، صن شاين الأمريكية تعرف العالم بمنتج شطائر الشوكولاتة المحشوة كريمة، وتطلق عليها اسم "هيدروكس".

1912 شركة البسكويت الوطنية الأمريكية، التي تمتلكها الدولة بما لديها من هيمنة وميزانية وإعلانات تستولى على الفكرة، من خلال منتج "أوريو".

بمرور الزمن تحول المنتج المقلد إلى أحد رموز الثقافة الأمريكية وبلغت أرباحه السنوية سنة 1998 مبلغ 374 مليون دولار أمريكي مقابل 16 مليونًا لهيدروكس، التي بات الناس تتهمها بإنها التقليد القبيح لأوريو.

1971 صممت مارثا نيلسون النحاتة الأمريكية دمى للأطفال وباعتها في معارض صغيرة وبين الأصدقاء في كنتاكي، وصنعت شعبيتها في محيطها الصغير.

1976 إكسافير روبيرتس يلتقي تاكر توماس زوج مارثا ويحصل منه على حق بيع الدمى التي تنتجها زوجته في جورجيا حيث يعيش.

1978 أخذ روبرتس الفكرة وأنشىء نسخته الخاصة وقام بترخيص الدمى لشركة "Coleco" تحت مسمى "Cabbage"، ما تعرف الآن بإسم دمى الكرنب.

1979 يقاضي توماس روبيرتس بسبب السطو على فكرة زوجته ويطلب تعويضات بقيمة مليون دولاراً أمريكياً.

1984 يتم حل القضية تماماً بسبب عدم رغبة مارثا الدخول في نزاعات قضائية مقابل مبلغ مالي لم يتم الكشف عنه حتى الآن.

2000 قدم الكاتبان آرثر لي ألفريد وإيزيكيل مارتينيز جونيور سيناريو لشركة والت ديزيني، تحول لاحقاً من إنتاج نفس الشركة لفيلم "قراصنة الكاريبي"، لكن الشركة رفضت وقتها لأنها لم تمتلك سيناريو مناسباً.

2017 رفع الكاتبان دعوى قضائية على شركة والت ديزني اتهمتها بسرقة "قراصنة الكاريبي" من حيث الموضوع والتيمة والحوار والشخصيات والحبكة الدرامية، بل أن هناك حوارات في السيناريو تم نسخها بصورة كربونية.

ولاحقاً تم التوصل لاتفاقية تسوية سرية بين الشركة والكاتبين لم يكشف عن تفاصيلها بينما بلغت أرباح سلسلة أفلام "قراصنة الكاريبي" الخمسة 650 مليون دولار أمريكي.

حين عرضت هذه القائمة اللصوصية على نائل لم يقتنع بأنهم مجرمون من الأساس وظل يدافع عن نفسه بالأسلوب القديم.

- أنا لم أسرق منك فكرة يومًا ما هذا لم يحدث، لن أقول لك: إن الأفكار ملقاة على قارعة الطريق أو إني تفوقت عليك أنت وأستاذك في ساحات المحاكم، أعلم أنها الحقيقة، ولكن على أية حال يمكنني أن أدلل لك ألف مرة كيف أن كل الأفكار بنات بعضها البعض.
- لا يهمني أن تثبت أو تنكر، كل ما في الأمر هو قناعتي الشخصية، أن تلك الفكرة لو لم تكن قد وضعت في رأسي ما وصلت إليك، ولم تكن ستتناولها. يتمهل قليلًا ويبتسم ابتسامة فاترة ثم يكمل حديثه قائلًا:
- غرز، أنت تحتاج إلى كثير من الغرز يا صديقي.

يكمل حديثه وابتسامته الفاترة لاتزال عالقة أنت فعلت مثل إسحاق سنجر وشركته سرقتم الفكرة من إلياس وأصبح التاريخ يذكرهم كرمز لماكينات الخياطة في العالم بإنشاء أول شركة لإنتاجها.

- المشكلة أني أنجح فيما تفشلون فيه يا أصحاب براءات الاختراع هذا لو افترضنا جدلًا صحتكم.
- ألم تفعلها ونحن طلبة وأنت لم تدخل عالم الأدب بعد.

أبتسم وأجيبه :

- "إن كل شخص تأتيه أفكارًا أثناء الاستحمام، لكن الذي يحدث الفارق هو من يخرج من الحمام ويجفف شعره ويفعل شيئاً بحيال تلك الفكرة" .

يزفر قائلًا : حتى هذا القول لتوماس بوشنيل.

- نعم هو ذاك الذي اخترع لعبة الأتاري وهو مثلك متهم بسرقتها
- هذا أنا أنت تعرف أن لي رأي في كل نفس يستنشقه البشر، لا يمكنني قراءة رواية أو مشاهدة فيلم أو مسلسل دون أن أقول رأيي حتى فكرتك التي اقتبستها وكتبتها من جديد لو كان من حكم علينا فيها شخصًا غير أستاذك لأنصفني يومها لأني أقرأ البشر بطريقة صحيحة لست مثلك
- أنت تقرأ الناس بخبث ولا ترى فيهم إلا العفن، تريد دوما التحقير لأنك تراهم أقل منك

- أنا أترجمهم بشكل صحيح وهم يقتنعون بقراءاتي، وأعمالي تجني ألاف المعجبين وملايين الأموال، لست هنا في مشادة صبيانية قديمة معك لكني اخبرك بحقيقة
- لا يهم لا يهم لن نقتنع لا أنا ولا أنت فلماذا كل هذا الإجهاد
- هل سمعت يوما في أي شركة عن وظيفة مبدع لا لكن دوما ستكون هناك وظيفة المطور developer العمل على الفكرة أهم منها
- هذا في الشركات وليس في الفن أنت تحول المتعة لعمل.. لا يستقيم

هذ الكلام في رأسي، ربما تنجح بمعايير وأسس ونظام ولكن لن

احترم روحك أبداً يا نائل ولن تخترقني

- أنا لست شرير القصة وأنت الخير أستاذك الذي أبهرك محمود

لسنوات وانفصلت عنه بسبب دناءاته - نائل لا

علاقة بك بأسبابي هداك الله

- شيرين أليس كذلك، أخرجت خبثه الذي لم تعرفه أو حاولت المداراة عليه، هل قرأته بعويناتي الن يا صديقي؟
- قلت لك أسبابي تعنيني وحدي وفقك الله لا تكن سخيفا
- أنت قرأته بطريقتي سأقول سرقتني إذن لكن كل البشر يجب أن تقرأهم بعين خبيثة كي لا يخدعوك لا يحق لشخص أن يخدعك أيها الحر أو يستغلك

لم يكن هذ النقاش هو الأول ولا الأخير بيني وبين نائل عن فكرة

الاستعارة والاقتباس، وأشهد له أنه أفضل من يجذب الناس للفكرة التي أبدعها لكن بمفردات وشخصيات بعيدة عني كل البعد.

لقد شاهدت وثائقيات عن فكرة الأفلام المسروقة في سينما هوليوود والاختراعات والابتكارات من الدمى لقطع البسكويت الشهيرة إلى الراديو وماكينات الخياطة والألعاب الإلكترونية، أشهر العلامات التجارية المشهورة هي مجموعة من اللصوص الكبار، وهذا جزء مما استخلصته.

ربما تغيرت فكرتي أو مالت نحو تقديم الأعذار حين قرأت "الرجل المعلب" لأنطوان تيشخوف وقارنتها بهند والدكتور نعمان، نفس البطل ونفس النقمة المتهدلة على روحه من المجتمع الذي يريد أن يعيش بشكل طبيعي، يستمتع، يخطىء، يعفو، يبتعد ثم يعود، ضد شخص لا يقبل بالخطأ أو التجربة أو الاحتماليات.

كيف لعمل أبهرني لعقود أن يكون مسروقًا، إنه جزء من ذكرياتي الخاصة جدا، أخشى أن يحولني تعنتي لمعلب جديد، غير أن هذه الأفكار ما كانت تذهب عني حين افتح أي فيديو لنائل أو أتذكر أحاديثنا وعجرفته فتزول عني أعراض التعاطف معه أو الإيمان بمعتقداته.

أمحق المبدأ الأول، استعارة أو اقتباس أو الاعتماد على أفكار الغير ثم تطعيمها بالروح الجديدة للمطور، ما جذبني للأدب والفن يوماً ما فكرة الابتكار، وربما ما قد يخرجني من حظيرته التملل والتكرار.

كاد الفكر يقتلني، مللت المقارنات والمقاربة، آمنت بما طعنت فيه يوما ما، وحين وانتني فرصة الانتقام جاءت لي في فكرة من رأس غيري، ومن الذي سلبني شيرين رغم أني تركتها بإرادتي، وكأنها إرادة الله أن أسلبه ما زهده، مثلما فعلها من قبل مع تفاحة قلبي.

المختار المحتل الجديد في دولتي، بإسم الهوس والإعجاب وتمهيد الطريق لكاتب عظيم سيتغنوا بإسمه في العقود القادمة ويسطروا قصته، بإنبهار يفوق ما يشعر به نحو الأستاذ العظيم.

في تلك الرحلة بدأت التنازلات، تلج الاعتبارات الإنسانية في سم خياط العمل مع المختار، أشاركه في كتابة بعض المشاهد، تحليل الشخصيات، بحث عن معلومات، دراسة تامة للقصة من كافة أطرافها أعيش الحكاية بروحي من الذرة للثرى.

أنا لا انتظر المقابل، أنا متنازل من الأساس، حيوان أليف في المتناول، لم يكتب اسمي إلا على مضض لا على الأوراق أو عبر الشاشات ومرة أو اثنين رغم علاقة العمل التي استمرت لعقد من الزمن.

حولني عن رغبتي كتابة رواية بحجة عدم وجود قراء للأدب، مدللا على هذا بإبتعاده عن الروايات الطويلة والاكتفاء بالسيناريوهات الأقرب للناس، لا يهم ما دمت في ذرا الأستاذ المبجل.

تحللت الأسلاك الموضوعة على قلبي وأزلت الغطاء الحاجب لمخي، لكن بيد واهنة مملوءة بخيبة ويأس زاهد خسر كل رهاناته في الحياة، الأخ والحب والفن.

****

آخر مقابلة مع المختار

جمعني بالمختار ليل خميسي شتوي، الخروج من البيت في السقيع وجريان الدماء الساخنة في الجسد المتجمد، لا يدفيها إلا فيلمًا من إخراج المختار، رائعة قديمة أبدعها على مهل وبمزاج رائق وهو يتناول وجباته المفضلة ويزفر دخان سجائره ولا يشعر بعائق أو ضيق أو مسؤولية ما كانت.

دعاني إلى الفندق الذي نزل به قبل يومين بسبب خلاف حاد، ربما الأكثر حدة بينه وبين ماهيتاب، أراد أن يروي لي كل ما ضاق به ذرعًا، خاصة بعد تخلصه من قبضتها ولو لفترة قصيرة.

إن حزن المختار الذي كسره على مدار الأشهر التي سبقت الوفاة، كان سعادة ونشوة مقارنة بما كان عليه حاله في تلك المقابلة الأخيرة بيننا.

حرصت يومها على ابتياع فطيرة بالسكر من أحد مطاعم وسط البلد وصينية كنافة بالقشدة، حبيبته الشهية، وأحضرتهم معي للفندق، كما لو أني سبقت في التطبيق نظرية نائل الخبيثة حين زارني لإقناعي بالمشاركة في كتابة المذكرات، وكأن حتى هذه فكرة استلهمها.

صعدت إلى حجرته في أحد فنادق وسط القاهرة الفاخرة، والذي كان دائم القدوم عليه في فترة توهج الشباب وكتابة أفضل أعماله بل وصور فيها أكثر من فيلم.

شاهدته ممددًا على السرير وإلى جواره مجموعة قصصية لكاتب شاب، حاولت كسر الجليد بمداعبة عن نيته تحويل إحدي قصصها إلى فيلم جديد لكن رده أحبطني.

- لا هذا من باب كسر الملل، وإن حدث لن يكون الآن.
- ما بك يا رجل، لا تقل هذا أنت في كل وقت قادر على أن تبدع.
- صدقني لو قمت بالتغيير سيكون أفضل، 3 أو 4 أفلام مع ماهيتاب شيء جيد ولكنك لم تفعلها مع أفضل الكتاب في جيلك، أم أنكما لهذا الحد متفاهمين (أضفتها بخبث واضح)
- أنت تعلم أكثر مني أن هذا ليس صحيحًا، لقد سأمت وضجرت ولم أعد قادراً على التحمل (بدا كمن يريد الحديث لكنه يفضل الصمت يأسًا).
- بالحق، كنت سأنسى، هذه الأشياء لك يا صاحب الفضل.

وقمت بفتح العلب الطعام وحرصت أن أبدأ بالكباب أولًا استنادًا لنظرية اللحم سيد الطعام لكني أيضًا استكملت فتح بقية العلب التي أثارت شهوته وجعلته يشرع في كسر القيود ويفتح قلبه وعقله.

- أنت تقتلني هكذا.
- لقد قتلت الكثيري في أفلامك يا فنان، ومن قتل يقتل. - ما رأيك في شيرين؟
- شيرين أم ماهيتاب؟
- هل حكت لك شيئًا مؤخرًا؟
- لا يمكنها الآن أن تروي لخطيبها، لم نعد نتواصل منذ فترة.

- هل حذرتها مني؟
- من كل الوسط وليس أنت وحدك، تحذير عاشق يخاف على محبوبته، هذا حقي أليس كذلك - لم اعتد سلب أي شخص حقه
- هذه أمور نسبية، رغم أنها ليست الحقيقة - ماذا تقصد إذًا (توقف عن الطعام)

- أرجوك لا تتوقف، لكنك ببساطة منحت فرصًا لماهيتاب كنت أنا الأجدر بها وأجبرتني على مساعدتها وكتابة أجزاء كبيرة من أعمال لها وضع اسمها عليها في النهاية بحجة أن هذا في صالح العمل، وهو في صالح الغبن وفي صالحها هي، أخذت ما ليس حقك من أجلها.. وكنت أعلم أنها ستضايق ماهيتاب، لكني أثق أنها ليست ضعيفة

- إذن حكت لك - ماذا؟
- ما جرى قبل أسبوع لكن أرجوك عليك أن تفهمني، لست المتصابي الذي يغازل فتاة في سن حفيدته أو يطمع بها، لقد كنت أبحث عن بد مخرج من براثن تلك الحرباء التي أعيش معها، وجه بشوش روح جديدة، توهمت أنها قد تفتح قلبها لي لكني كنت غبياً
- ماذا جرى؟

- حاولت معها ولكنها أبت، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد لطمتني ووبختني كطفل في السادسة عمره، الأكثر من ذلك أن ماهيتاب شاهدت المشهد

- يا رجل ألم تكن قادرًا على أن تنتظر غياب زوجتك وأنت تنهش عرض الشقية الأخرى
- أنهش عرضها، كيف تقول هذا؟.. أنت تعرفني جيدًا
- أقول هذا لأني أعرفك، يخيل لي أنك في لحظة ما تتوهم أنك صاحب حق في كل شيء ليس من حقك، الأزمة أن هناك بشر يتنازلون عن حقوقهم بلا سبب فيظن أمثالك
- أمثالي (أبدى دهشة صارخة من تجرأي عليه)
- نعم أمثالك، من اللصوص الذين لا يمتعهم مثل سلب الحقوق غير المملوكة لهم، فيلطخون قلوباً بريئة بمشاعر دنس ووساخة

وضعت أمامه صينية البسبوسة وحثته على تناولها والتهامها كما حاول التهام شيرين من قبل لولا قدوم سيدته الكئيب في الوقت المعلوم.

- ألهذا الحد تكرهني.
- لا لحد أكبر، أنا أكره كل من يسلب مني أو من أي شخص حقه بلا سبب، أو لأنه تعود على التميز أو الحصول على ما لا يستحق لأن هناك من أوهموه أو تركوه وسمحوا له بالتمتع بما لا يحق له - لهذا تركتني
- لو أعلم أن دنائتك ستصل معها لهذا الحد لبقيت كي اقتلك وأنت تحاول معها، تصدق، لقد جئت للتشفي في ماهيتاب والاستماع لأخبار حياتها الحزينة، لكني أكثر سعادة للتشفي فيك
- لماذا كل هذا؟ لم أكن أعرف أنك تحبها

- نفس العذر القديم الذي استخدمه نائل، لم يكن يعرف، لا بل كنت تعرف، وحين جئت بها إليك لم نكن قد انفصلنا وهي روت لي أنها حكت لك عن طريقة تفكيري التي لمتني عليها، لكن ربما نسيت بحكم السن، السن الذي لم يمنعك من أفعال المراهقين

تركته وقد أربد وجهي بالدماء وأشعل الغضب روحي ورغم أني قد شعرت لأول مرة بالقدرة على مواجهته لكن كلما تخيلت أني كنت كقواد قدم له حسناء فاتنة وأنا أعلم من يكون يقتلني تأنيب ضمير وإهانة كبيرين.

لم أتصور أن النهاية ستكون هكذا مع المختار، توقعت لقاءات نادرة في آخر أيامه، جلسات رمضانية وموائد وبقاء شيء من سدر قليل استظل به روحياً وفنيًا وإنسانيًا، لم أتوقع أن أكرهه هكذا.

حين أحضرت له الطعام المسبك والمشبع بالدهون رغبت في إسعاده وإخراجه من حالة الضيق، لكن حين أخبرني بفعلته الخبيثة وودت لو أن يزيد ما قدمته إليه آلامًا وشقاء.

تخيلت كيف ستكون حالة ماهيتاب وهي تشاهد حلم عمرها الذي توهمت أنها امتلكته بين يديها يلهث ككلب خلف فتاة تصغرها سناً وتكبرها جمالة وبريقًا وبهجة، فتاة لم يكن معها أجرة السكن وقت جاءت إلى هنا، وهو أمر مشين في فلسفة ابنة الأكرمين.

أشفيت غليلي من المختار رغم أن الانتقام جاء متأخرًا إلا أنه أتى حتى لو فارقت روحه الحياة في اليوم التالي، لم أشعر بذنب أني تسببت في انطفاء روحه للأبد وودت لو أذهب لشيرين للاعتذار إليها، ولكني حذرتها منذ

البداية، وهي من الأساس لا تحب الشخص الضعيف المعتذر، خاصة أنها لقنته درسًا ربما أرداه قتيلًا قبل كلماتي.

شعرت كأني بقيت سنوات متشبثًا بأيدي مهزوزة بسياج حديدي صدئ خدش روحي وبهتها وأتلف المصباح الأخير في حجرة قلبي، لكن ليس له أن يعتم ما وراءه أو يحجب الهواء بعدما هبطت من عليه وإذا ما كان بي كسور أو كدمات فعلي مداواتها.

اتجهت بسيارتي صوب وسط المدينة أعلم أني سأقابلها هنا، في أحد هذه المقاهي متدنية الخدمة التي تقدم قهوة قميئة ونارجيلة غزيرة السعال لها مبسم عفن الرائحة، طاولات مهترئة تدور حولها مقاعد متسخة بينها أكواب لا تأمن ما وراء رحيقها الخبيث، ولم تخيب ظني، وجدتها بين مجموعة من
الفتيات، لم أكن أعرف منهن إلا نهال صديقة أيام البراءة، اتجهت نحوها وأومأت لها كانت تدخن النارجية، ولم تكترث كثيرًا إلا أنها أشارت لي بالقدوم، مبدية دهشة مصطنعة.

شيرين: أمممم كيفك أخبارك اية

محمود: ممتاز الحمد لله (أتبعتها بإبتسامة متصلبة وصامتة)

محمود : هند صحفية ونهال تعرفها طبعًا، ودي مها أختي (كانت متصلبة النظرات وهي تقدمهم لي دون ابتسامة ولو مصطنعة)

- أهلا يا مها إزيك فرصة سعيدة جدًا
- ميرسي أهلا بك

رقيقة أوي عكس ما بتحكي يعني

- يعني (ابتسمت بسخف ورتابة) - أريدك
في موضوع ما

تغيرت ملامحها بشكل مصطنع كأنها تسألني بوجه مقطب "ماذا تريد؟"، تحولت شيرين لشخص عديم الكياسة والتهذيب، يجرحك بنظراته ويجعلك تندم أنك ذهبت للتحدث معه.

أتذكر أني آخر 3 مرات اتصلت عليها لم ترد، لم يعد لي بها غرض وهي تدرك ذلك جيدًا، لكنها تريد التجرد من كل ما يذكرها بالعقد أو سنوات الخيبة وكأني شاهد قديم على شخصية قد قتلت لا تريد لأحد أن يعرفها.

لكن لا لم أندم على ما فعلته مع المختار، إرهاصات قديمة عديدة مهدت لهذا الانفجار، بل أنها تستحق جزيل الشكر عليه، لو لم أعرفها إلا لهذا الغرض، لكن بالطبع جرحني أني في النهاية ثرت هكذا لأجلها وهي تتعامل معي بهذا التجاهل الغبي الأشر.

ذهبنا إلى الجلوس على طاولة بعيد داخل نفس المقهى الذي كانت تدخن عليه النارجية مع جوقتها وطلبت من العامل أن يحضر لنا فنجانين من القهوة دون أن تسألني إلى جانب كرسي الدخان الخاص بها.

بدت وكأنها تدندن أغنية دون أن تنبس، سألتها ما بها فأشارت بيدها أن أصبر ثم وكأنها عثرت على ما تريد غنت "مش مهم أن أنت رحت، المهم أن أنت جيت".

- ماذا تعني؟
- لا لا، لا أعني ما أرادته الأخت نوال على الإطلاق، لكن لا يهم علاقة قديمة ورحيل مفاجئ وبلا معنى أن تبرير في رأيي، لكن المهم لماذا أنت هنا الآن؟
- أممم أكيد في سبب، لماذا لم تخبريني بما فعله المختار بك.
- لحظة (انفجرت غاضبة): لا يجرؤ أو يقدر أحد على فعل شيئ بي، أياً كان (حاولت أن أوضح كلامي لكنها لم تتوقف) .. أم تراه اشتكى لك مني.
- أنا حزين من أجلك وذهبت إليه ووبخته من أجلك، أنا لا أتحمل أن يفكر شخص بك هكذا، أيًا كان من هو، لماذا تتحدثين هكذا؟
- صدقني يا محمود، أنا لست بحاجة لهذه المشاعر الطيبة منك – ابتسمت ساخرة - شكرًا يا أخي، ولكني لست بحاجة لها، لدي من التبجح والصلف ما يجعلني أتعامل مع أشخاص أحقر بكثير من أستاذك وزوجته.
- هل كل شيء على ما يرام معك، أخبارك مع سمير.. أريد فقط الاطمئنان عليك (حاولت جرها للاستكانة والهدوء)
- عليك أن تسأله هو هذا السؤال، أنا لم أعد من تنتظر رحمة من أحد، لست أنا من نترك المقود لغيرها كي يسير العملية، سمير هو من يحتاج الاطمئنان عليه، هل قادر على استكمال الرحلة معي أم لا، أما أنا مستمرة، سائرة في طريقي.
- قطار

- ربما تريد معنى سيء (أومأت بما يشبه أنه لا يعنيها على الإطلاق نواياي أيًا كانت)

وودت لو أسألها عن أسباب عدم ردها على اتصالاتي رغم عدم وجود أي مشاعر سلبية منها ناحيتي لأنها لم تحبني كما أحببتها يومًا ما، وحتى لو شعرت بشيء فرغبتها في التحرر تقاوم أي حب وترديه قتيلًا بلا نفس، أو لأن من أحببتني يومًا ما كانت شخصية أخرى، وارى روحها الثرى في مكان ما لا يعرفه إلا الله.

تركتها وذهبت وددت لو شكرتها مجددًا لأنها جعلتني أكرهها، هذا أكبر جميل فعلته بقلبي، إذا ما كانت شيرين قد قررت التخلص من كل عقدها فإن شراك الكراهية التي تجبلت روحها عليه هو العقدة التي ستقتلها يومًا ما، هل لو منعتها يومًا ما من مقابلة المختار، لما حدث لها هذا، أم أن روحها كانت ستنطلق ولم يكن لأحد أن يوقفها مهما حدث.

هاتفني شكري وسألني عن أحوال الأستاذ وقصة أزمة ندوة الإسكندرية التي تحدثت عنها الصحافة، لم اكترث بإخباره شيئًا، كنت مشتاطًا أكثر من أي وقت مضى، ونفيت أي تواصل بيني وبين المختار، لارتباطي بمواعيد عمل لكني كي لا أبدو في موقف غريب حدثته عن دعوتي المرفوضة له لتناول العشاء في ليلة خميس واعتذاره بسبب مشاكل مع زوجته.

فكرت في الذهاب إلى نائل والإقرار له بصحة رأيه القديم في المختار، لكن لم أحبذ هذا الأمر، إذا كنا قد اتفقنا على رأي ما، فهذا لا يعني أن أسبابنا تحمل نفس الشرف.

ربما تكره شخص ما حقدًا وكبرًا، وربما لأنك منحته ما لا يستحق، لا اعتقد أننا متساويان خاصة أنني بنيت حكمي على تجربة طويلة وليس موقف عابر.

بحثت ولم أجد إلا شيرين لكن عند مقابلتي لها وجدت شخصًا آخر لا أعرفه، بحثت فلم أجد لكنني شعرت أني منزوع اللجام، منطلق لا يهمني مع من سأحكي، لكن يهم بما أشعر.

قلبي إن أحب لن يكون مثلما فعلت شيرين بالبحث عن شخص غريب عن حالتها أو تجربتها المتأزمة بل سيكون عن شخص من نفس جلدي لا يجبرني أو يجعلني مطالب بالانزواء عن أشياء أو إخفاءها، سأضع شروطاً مجمعة مكملة، روح متكاملة الآدمية ينفتح قلبي لها مرحة بشوش تشاطرني فكرا وعقلا وقلبا، لها من الرقي قدر ومن الحنان أقدار، تشبهني وتشبه من أحبهم، روح أخرى من جنة فردوس.

وبين الفينة والأخرى أضفت مناقب نائية ساقمة كي ابتعد بمسافة أكبر عن الشرك، لا يجتمع كل ما دونت في واحدة على الأرض، وضعت شروطي كي لا أقع في غياهب الجب، وربما يحدث يوماً ما لا يخطر على قلب بشر.

تلقيت اتصالًا في اليوم الثالث للمقابلة من ماهيتاب لم أفكر في إنكار مقابلتي لزوجها، لأنه بنسبة كبيرة ستكون لديها معلومة، لكني كنت غبياً لم تكن تعرف، لا يهم أي شيء، حدثتني عما حدث واشتكت منه ومن شيرين ومما فعلته بها وعددت صفاتها الخبيثة وكي إنها أدركت دنوها منذ اللحظة الأولى، تعجبت "دنوها هي.. الضحية"، لم اعتاد عدلًا منها ولم اهتم

بالدفاع عن التي رشحتها يوماً ما لدخول غابة المختار وماهيتاب، لإنها باتت حماراً وحشياً، حوافره صلبة مدببة متأهبة للإجهاز على الضحية.

عند علمي بوفاة المختار شعرت براحة شديدة، لا أدري لماذا؟، ليس تشفياً بالمعنى لكنه لربما موت أعفاني من تجنب اللقاء في المستقبل، أو من مشاهدته ينحدر أكثر من هذا، أو يسقط من نظري، لا أدر، أو لربما لأن سالبو الحقوق لا يستحقوا التعاطف معهم.

الخبر جاءني عبر التلفزيون، يوماً ما توهمت أني سأكون رفيقه الأخير على سرير الموت وسأخبر الناس بالخبر، لكن ما نتخيله لا يتحقق على الأغلب،
تخيلت في لحظة ما أن أول أعمالي سيخرجها هو لكنه أبقاني عنصراً من ضمن تروس الماكينة التي قادتها الحسناء زوجته.

النصيحة القديمة، لا تعمل مع جيل يكبرك وليس منك لا يشعر بما اختبرته ولم يعش تجربتك، لن تكسب شيئاً، إلا شعور القارىء أو المتلقي بشيء غريب، عدم تناسق، شذوذ، أحمد الله أني لم أشاركه عملًا.

لم أتواصل مع شيرين بعد المقابلة الأخيرة لم يعد ثمة هدف من أي شيء، فكرت أهي من قتلته بإهانتها له وتعديها عليه أم أنا حين دافعت عنها وكشفت عن مكنون صدري وهناك خيار ثالث إهانة نائل العلنية التي عجز عن الرد عليها أمام أعين ماهيتاب، تلك التي سنت السيف وقدمته لنا لنطعنه كلًا بطريقته.

طلبت ماهيتاب مقابلتي، بالطبع كنت أفطن للسبب، روى لي نائل قبل ذلك عن حديثه معها عن فكرة سرد تفاصيل آخر أيام المختار، وكيف

رفضت وهددته، وتريد الآن تحذيري، قبلت على مضض وذهبت إلى منزل المختار، لم أزره منذ فترة، كانت مقابلة وداعية كئيبة ومليئة بإرهاصات الزمن الماضي.

بادرتني بسؤال عن دوري في كتابة مذكرات المختار

ماهيتاب: سمعت أنك مشارك في عمل عن المختار، هل أنت شريك صديقك نائل فيه؟

- نعم
- وماذا قلت فيه عن أستاذك؟
- ليكن سيرة ذاتية عادية، آمن المختار بضرورة إظهار الشخصيات على حقيقتها ما لها من دوافع وميول وحالات، كان ملك الحالة وفي الأغلب المجنون منها، غير المتوقع
- يختلف الأمر كثيراً، المختار لم يكن يفضح الناس، أبطاله كانوا خياليين، حين نتحدث عن حياة شخص وتخصه بالاسم شيء وأن نتحدث عن أمور تفضحه وكأنك تريد أن تنتقم أمر مختلف، أتفهمني
- ماهيتاب، لا اعتقد أنك تشكين في حبي للمختار، لكن حاله لم يكن على ما يرام في الأيام الأخيرة ومن حقنا أن نعلم سبب هذا
- أمراض القلب والشرايين وشيخوخته، مزاجه المتدني في الطعام، رمرمته في كل شيء، ومن قال أن من حقكم معرفة ذلك من الأساس، أنا زوجته، ربما أبناءه، الذين لم يهتموا من الأصل بهذه التفاصيل
- ليكن (جاوبتها ببرود وكنت أمسك هاتفي أقرأ مقال ما)

- لا لن يكن ولن أسمح لكم سأقاضيكم جميعاً.. هذ ملعبي لدي القدرة على التحدي حتى آخر نفس، لا يهلهلني التملل سريعاً - ليكن (بنفس الهدوء)
- أنت تدرك جيدا أنك لا تقدر على دخول تحدي معي فما محمود بالك والقانون معي، لا تتظاهر بشجاعة لا تقدر عليها (ابتسمت وهي تهددني)
- أنت قوية جدا وأقر لك بهذا لكن هذا لا يعنيني ولا يهمني أي شيء الآن ستواجهين خصما لا يقل خبثه عنك في المعركة القضائية، ماذا سيحدث سيخسر سندفع تعويضا ولا أتوقع هذا من الأساس لأننا لن نضع أسماء لكنك ستخسرين أكبر لأنك اسم معروف ومحبوب ستشوهين حين يعرف جمهور المختار أنك أمنيتك يوما ما كان موته
- وماذا ستفضح كذلك أيها الصديق الندل
- لا داعي لقلقك هذ عزيزتي سيجر لسانك للانزلاق وربما تجدي نفسك أنت المتهمة في المحكمة
- لا تصدق أنك تقدر، لا يمكنك إلا أن تصبح تابعا، لهذا لذاك، لي لو أحببت، لقد جبلت أرواح على هذا ولا يمكن تغييرها، علام اعترضت يوماً ما سرقة أفكارك، وأنت الآن لا تسرق لكن تتبع فكرة غيرك، دورك الطبيعي ولكن الفارق أنك ستجلب لنفسك المتاعب، صدقني من الأفضل لك لو لم تنشر شيئا أن تتوقف

انتابني هذا الضيق والامتعاض الجنونيين حين تركتها، حية رقطاء سامة ستجرني معها إلى عالم خبيث صراعات ستتبر روحي، لا بد من الابتعاد عن كل هذا، لا بد الآن من التوقف، قلت كل ما أحببت أن أقوله وربما أكثر.

هنا حين قطعت شيرين الورقة الأخيرة في كتاب قلبي قررت الانزواء بعيدا عن عالم القلوب المثقلة بالرومانسية الغبية المتيمة كي لا أخبت مجدداً أمام أي تجربة ايا ما كانت.

واصلت عملي على رواية "أيام المختار الأخيرة" وتركت أحبال القضاء اللامتناهية لماهيتاب ونائل يجروها معا، يبسطون ويرخون ويشدون ويرهقون ويلعنهم اللاعنون. رسائل

ماسنجر الفاضحة

انتبذت صاحبة المختار الأخيرة من برنامج ماسينجر مكاناً خفياً لتدوين لحظات الضعف الأنثوي والبشري بداخلها تلك التي لم يكد أحد يراها إلا سعيدة أو عابسة ولكنها لم تقر يوماً باقتراف ذنب أو تعتذر عن فعل بذيء.

لم يتعود والدها أن يعلمها ثقافة الاعتذار، فتحول الأمر إلى أداء واجب وعند الضرورة القصوى.

لكن ماهيتاب سقطت في أفخخ نفسها كثيراً ولطالما رغبت أن تبوح وباحت عبر ماسنجر برسائل أرسلتها لحسابها الشخصي عبر "فيسبوك".

في بعض الأحيان كانت تبعث برسائل ثم تمسحها على الفور، وكأنها علمت أن نائل سيقود يوماً ما عملية للقرصنة على جهاز التليفون المحمول لها وسيفضح رسائلها عبر ماسنجر.

اختار نائل هذا الأسلوب الذي ألمح إلي به حين طلب مني مشاركته في الكتابة عن أيام المختار الأخيرة، كوسيلة ضغط أخيرة لم أحسبه سيستخدمها.

صراحة لم أعد استنكر أفعال مثل هذه، ما مررت به معها لم يكن محتملًا ، لم تحبه ولم تفكر إلا في نفسها.

ونشر نائل مجموعة رسائل ليدخل في حرب قانونية ضروس مع ماهيتاب لم اهتم بمعرفة ما الذي ستؤول إليه لكني بالضرورة اتخذت صفه كوني معه في نفس الخندق، لكنه كان يطمئنني دوماً من عدم وجود عواقب وخيمة خاصة أننا لم نذكر أسماءاً في روايتنا.

هذه الرسالة الشخصية لماهيتاب أرسلتها لنفسها قبل عام من وفاة المختار بعد عودتها من عزاء أبيها

بعد فراغي من حضور عزاء أبي، ذهبت إلى حجرة نومه هو وأمي، تلك التي كنت أشاغبهما فيها في صباي، طفلة وحيدة مرحة ترتع وتلعب كما يحلو لها في حضرة أب لم يحرمها من أي شيء.

رغم أني ثرت عليه كثيراً، لكني لم أحب إلا السير على دربه، حتى لو أخفيت ذلك، أنا دوماً أبطن أكثر مما أعلن، كما قال رئيس وزراء النرويج السابق،

أفضل الإنجازات نحققها سببها أشياء لم نقلها وليس الذي كشفنا عنه، قوة البشر تكمن في القدرة على التحمل والتخفي وراء الأقنعة.

ممدت قدماي على السرير، وقلدته في نومته، وضعت يداي خلف أذني، لم أكن أحب هذه الطريقة في النوم ولم أتفهم كيف يتحملها هو، أطلقت عليها "سبات العواجيز والأطفال"

ألتقطت برواز به صورة والدي من على الخوان، نظرت إليه في أسى وحسرة حقيقيين، وأخذت حقيبتي الصغيرة وتناولت صورة مختار، قارنت بين الوجهين، السن، العجز، حنان الأب، جنون الزوج، رهاني الخاسر، الذي حسبته حلم العمر الذهبي، المجد الذي لم أصل إليه، أقر أني لم أصبح إلا تابعة، مريدة من مريدين كثر، مرحلة إنعاش في جسد العبقري، ومرحلة أخيرة جداً.

إن من جئن قبلي هن من فزن، الشباب والحيوية سنوات الشهرة المتوهجة بالفتوة الريانة التي صنعت الأسطورة وجعلت أمثالي يلهثون.

تساءلت، لماذا يموت أبي الذي احتاجه حتى الموت، ويبقى هو على حاله وقد قضيت وطري منه، سأظل اسما يلصق بهذا العجوز المتصابي مدعي الجنون.

كم كنت غبية رعناء، ألم أدرك أن أبناءه قبل زوجاته تركوه، ما عساي أن أفعل الآن، أتحول لمتفرج أم منظمة لنزوات المستقبل، ضحكه غمزاته إيماءاته السخيفة المبتذلة التي لا يتوقف عن إهانتي بها وهو يتطلع لحثالة الفتيات اللاتي لم يضعن له أدنى اعتبار.

هو ليس بالمراهق أو الزوج الحديثي ليس اربعينيا أو خمسيني أو حتى على المعاش، إنه يضع قدما في العقد الثامن وأخرى في القبر.

إن روحه يجب أن تزهق قبل أن أموت كمدا، على روحه أن تتبخر، وعلى قلبي وروحي العودة لطبيعتهما.

هذه الرسالة الشخصية لماهيتاب سبقت وفاة المختار بسبعة وعشرين يوماً

لم أعد أطيق الانتظار، لا أدري ماذا انتظر، أعيش ميتة في كنف رجل خبيث، لا يتوان عن مغازلة الساقطات طوال اليوم دون وضع أدنى اعتبار لي، حتى رزانتي القديمة لم تعد تسعفني، أعصابي باتت منفلتة يسهل اشتياطي وإغاظتي بأسهل طريقة ممكنة.

نفذ صبري على أفعاله بالأمس جاء من الخارج يترنح في الثالثة فجراً، كان منهكا، يتصبب عرقا وأنفاسه تصعد وتهبط كأنها تتبخر في السماء.

سمعت صوته من حجرتي حجم حيث كنت أشاهد التلفاز، وحين اقترب لم أغلق الإضاءة أو أحرك كرسي أو طبق لكني ادعيت النوم، يا له من أستاذ كبير، شعر أني أتجاهله، نظر بآسى كبير نحوي ونام بملابسه لم يكن قادرا على تغييرها.

شعرت أنه لن يستيقظ بعد تلك الليلة أبدا لكن لم يحدث، فاجئني صباحاً وقد أعد لي إفطاري المفضل، كوب كابتشينو وسندوتش جبن رومي، تناولته وشكرته وسألته عن حالته الصحية مدعية أني سمعت سعالا

بالأمس لم أدري مصدره وصدقني، أقسم أنه رغم تيقنه من كذبي ما

صدقني، كيف يحدث هذا؟ أنا خيبة إلى هذا الحد؟ هل الملاك هل هو

العجوز الطيب، أم أنه يعتذر عن أفعاله.

حاولت أن أبوح بما في صدري، شعرت بنقاء حقيقي وقديم تجاهه لم أحس به منذ أيام التعارف الأولى.

- حبيبي متى تكف عن مزاحك ومغازلاتك السخيفة للبنات في موقع التصوير
- لهذه الدرجة لا تثقين بي
- ولدرجات أبعد بكثير، وأنت تفهمني جيدا
- ماذا عن مشروعك الجديد.. الخبثاء أهذا اسمه؟
- ماذا تقصد؟ هل تنتقم مني لأني اخترت العمل مع مخرج آخر، أهذا حقك متى كنت ديكتاتورا أيها المبدع العظيم لم تكن أعلم أنك مدعي لهذا الحد
- لم أقصد (بدت عليه ملامح الوهن وعدم القدرة على الصمود في الحديث)
- في النهاية أنت تعرف أخلاقي ونبلي
- إذن أنت تعرفين وضاعتي وخستي، أهذا ما تريدين قوله يا فاتنتي؟ - لماذا استدعيت القبيحة رديئة الأداء شيرين
- هذا إذن، دوما لديك أزمة معها منذ اليوم الأول، تريها الخطر هو الأكبر عليك

انفجرت ضاحكة، ولو أتوقف، احتدت ملامحي وتنمرت عيناي: ماذا تقصد بحق السماء، أنت لست رجلًا لأغار عليك، أنت إلى عتبة قبرك تركض، أنا بكل بساطة يمكنني تركك والبحث عن رجل وفي نفس سني، لقد مات أبي وهو أصغر منك بعشر سنوات رغم أنه عاش نظيفاً لا يتغذى على حشرات النساء، تلهث كالكلب خلف فتاة ريفية لم يكن في يدها أجرة العودة لمنزلها حين جاءت لأول مرة

- أرجوك توقفي عن هذا الهراء
- اصمت لا هراء هنا غيرك، أنت حمل ثقيل علي، فلا تحاول أن تزيد أحمالك لم أعد قادرة أن أنوء بحملك.

بهت وصمت واكتسى وجهه الأبيض المكتنز بسواد محبط، بينما قمت بخطوات سريعة بتغيير ملابسي أحاول أن أبين له الفوارق بيننا، أخذت حذائي ورفعته للسماء ثم تناولته بحركة سريعة وطلبت منه البقاء وعدم الخروج لأن صحته لا تسمح وحذرته من مشادات جديدة وأمرته بعدم اتخاذ مواعيد دون أن يخبرني.

دونت ماهيتاب هذه الرسالة الشخصية قبل عشرة أيام من وفاة المختار

(يوم محاولة اعتداء المختار على شيرين)

ما هذا أيها المنحل الخبيث، كيف تجرؤ؟، لهذا الحد لم يعد لي قيمة في نظرك، متى أيها العجوز وأين؟، وأنت تعرف أني موجودة في مكان عملي وعملك، تغازل تلك التي تدرك يقيناً كرهي لها، ما بك كيف ارتخصتني

هكذا أم أنا الذي أرخصت نفسي، هل تضايقت من تسلطي وهيمنتي؟، لا والله ما أنا إلا أنال جزء من كرامتي واحترامي لنفسي، لا يمكن أن أتركك هكذا ترتع وتمجن وأنا الذليلة المنتظرة، لم ولن يحدث.

أيم الله يا شيرين سيأتي يوماً وسأردها إليك، كل لطمة وكل كلمة تطاولتي بها علي، لم أكن أدرك أنك تحملين في داخلة همجية من العصور السحيقة، لها أنياب من لهيب وروح ناقمة ولسان خطل.

سأعيد كلًا إلى مقامه، وستعرفين أين يقبع أمثالك، تحت أقدام أبي، أنت وأبيك وأمك، تتودون وتشحذون وتتملقون وفي النهاية تركلون.

لم يحتمل قلبي رؤية المشهد، هو يتقرب ويغازل وهي ترد بنظرات متعالية ساخرة وتطالبه باحترام سنه والإبقاء على تقديرها له وإنها لم تعد تحتمل سخافات الكلام، فما كان منه إلا أن أوقف الحديث وبدأ العمل، حينها صعقته بلطمة حين اقترب من صدرها ذات التوب المفتوح وددت لو كنت أنا من وجهها، وأهانته بألسنة حداد، عله يستقيم ويرتجع، ووبخته وذكرتني فلم أتحمل اقتحمت عليهم غرفته ولم أجد رأسي إلا وهي تدلف إلى ظهرها المكتنز وتدفعها نحو الحائط لتسقط لكن قبل أن أشرع في توجيه
اللكمات أسقطتني على الأرض بقدمها التي تحولت إلى قاطرة أوقعتني لاستمع لأول مرة لإهانات من شخص لم أبغض مثله في حياتي، وضربات لم أحاكي عشرها طيلة عمري، يبدو أنها كانت تكن لي أكثر مما في قلبي، لعنة الله عليك أيها المختار الذي لم أندم على شيء قط مثلما ندمت على اختياري لك.

تلك العاهر وصفتني بالمتسلطة والمتصابية والعنود والكئيبة والمكروهة، سياط يديها كان حاداً لا يتوقف، أما آهاتي فتحولت إلى بكاء حتى تركتني بعدما تدخل الخبيث الملطخ بالعار وقبل يديها كي تتركني، لحظة الموت حين تبدل كل شيء.

لم أحتقر أحداً مثلما احتقرت المختار في تلك اللحظة، فرغت شحنة الغضب التي كادت تقتلني صعقاً في وجهه، ذكرته بكل شيء تحملته كفتاة عشرينية تتزوج رجلًا مثله يكبرها بمثل عمرها أو يزيد، كيف حولني إلى عجوز عاقر، حتى أصدقائي وجلساتي لم تعد إلا مع أقرانه وأترابه، ولكن هل أحس بشيء من الذنب، هل آن موعد الانفصال؟، هل ستتركنا هكذا دون أن تفضحنا؟، يجب علي أن أسكن قليلًا الآن.

رسالة ثانية مقتضبة أضيفت بعد ساعتين من الأولى

ما زاد وهج النيران المشتعلة في روحي، رؤيتي له ذليلًا منكسراً نادماً أمامها، عابساً غير مبال في وجهي، لم ينظر لي من الأساس، كيف؟ كيف؟ كيف؟

هناك شيء ما قد ذبل في علاقتنا، لم يحاول الرد علي أو تهدئتي أو حتى احتضناني، تركني وغادر، لا أتوقع أنه سيعود إلى المنزل الليلة، ولا أريد عودته أبداً، لقد قرر التخلص مني، أراحني الله منه، كيف تدانت نفسي إلى هذا الحد الوضيع، ألا لعنة الله على الموهومين المخدوعين المنبهرين. هذه الرسالة أول ما كتبته ماهيتاب بعد رحيل المختار

الآن وقد رحل، لروحي أن تستمتع بالتحرر والحياة من جديد، لن يحرقني الندم لحظة بعد اليوم.

على أن أعود لما كنت عليه، لسه زوجة الأستاذ، بل أني أنا الأستاذة المبجلة الوقور، التي تنال الثناء عن حق لنفسها لما تقدمه هي، أنا صاحبة الشيء ولست مريدة من مريدين، سيكون له زمرتي جوقتي الخاصة وجمهوري، سأبهرهم وسيتوقون لرؤيتي وينهالون علي بالمديح، سأكون مستحقة لكل كلمة، وسيحاسبوني على ما سبق، تلك الكلمات التي وصفوه بها، يمكنني الآن أن أنال نصيبي وحقي الشرعي منها.

لن أحجم بين ضحكاته السخيفة مع ساقطات وبين حفاظي على مركزي وكبريائي، سأزيل كل وساخاته بقطرات من سائل سميك مركز، سأكمل عالمي الخاص الذي شرعت فيه رغما عنه في أيامه التي أخيرا باتت أخيرة.

لن أر شيرين الشحاذة بعد اليوم لن أجبر على الاستماع لأحاديث محمود المملة، ولن يثرثر علي معه بعد الآن.

سأعود إلى أترابي، ستضخ الدماء في وجهي وقلبي وينقشع غمام أيامي، رحمك الله يا مختار، ألمتني كثيرا وسرقتني لسنوات، كيف تساهلت معك إلى هذا الحد ومنحتك عشر سنوات من مقتبل عمري.

الآن وقد خرجت من عباءتك إلى أبد الآبدين، سيكون علي ارتداء ملابسي السوداء الأنيقة وإظهار حسني بملابس وقورة ودون مساحيق تجميل، إني
أملك ما يكفي للتفوق في هذه اللعبة، ولكني بلا شك يا عزيزي سأبكي عليك، وسأتذكر كم كنت غبية يوماً ما، لكني لن أمارس الغباء مجدداً.

تفاصيلي الدقيقة الأخاذة، كل موقف جمعهم بي، كيف أنظر لهم؟، درجة تقاربهم مني، تأويلات لما كتبته في أفلامي، وإعادة مشاهدة جديدة ومراجعات، سأكون أنا المحور وسيصطفون من حولي ولن يتوقفوا عن الحديث، حتى أتفضل وأحنو عليهم بالرد، هنا سيخرصون جميعاً، أيها المنبهرون آن أن تستعدوا.

****

سيلفي عزاء المختار

حضرت ليلة عزاء المختار بالزي الرسمي، قميص وبدلة قاتمتين بالكحلي، ولكن في ثياب مهندمة ومرتبة بل وجديدة وكأني أبدأ مرحلة ما بعد المختار أو أعلنها للجميع، رغم أني تركت جوقته قبل وفاته بفترة.

حضر شكري الذي كان يبكي حقاً على صديق العمر ولا ينظر نحو ماهيتاب إلا شزراً وبإقتضاب كي لا يثير الجدل أو الأقاويل، وأتذكر أني في نهاية العزاء وجدته يتحدث معها بحرقة عن شيء ما لم تعد معرفته تفيدني.

أما ماهيتاب فكانت متأنقة ظهرت بوجه رائق ذكرتني بجمالها الشبابي القديم، نضارة وجنتين خلدتا للنوم بالقدر الكافي وبدون وضع ماكياج تأنقت بجمالها الطبيعي الخلاب الذي هز المختار يوماً ما.

طلتها لم تكن عابسة لأنها لم تر اليوم قمطريراً، بل بالعكس كانت ترحب بالضيوف ومطلقات المختار وأبناءه وأحباءه والصحفيين، ولم تحاول إدعاء البكاء.

حرص نائل على تجاهل التواصل مع أبناء المختار، رغم أنهم لم يعيشوا معه مطلقاً إلا في ومضات سريعة أو إجازات قصيرة لكنهم أكنوا له حباً كبيراً

ظهر، اختبرته في مكالماته الهاتفية معهم والتي كانت تبهجه وتعدل مزاجه أياً كانت حالته.

وفي نفس الحال، لم يكن غيابهم عنه خارج البلاد أغلب الوقت يثير ضغينته أو يصيبه بحسرة أو ألم كالتي عانى منها في أيامه الأخيرة.

حاول نائل إظهار الجزء السلبي في وجه المختار، أو تغيير وتعديل تلك الصورة النمطية القديمة التي تراكمت في عقول وأذهان محبيه، ومشهد مثل هذا لم يكن مفيداً له.

كانت له ابنة تعيش في لندن، درست الإخراج السينمائي وكانا يتبادلان النقاشات عبر برامج الفيديو على الإنترنت، قابلتها مرتين، مرحة على قدر كبير من العلم والجدية مع مسحة من روح أبيها المرحة النازحة إلى الجنون.

أما الإبنة الثانية فلقد سافرت إلى دبي مع زوجها ولم أقابلها مطلقاً، مقابلاتهم كانت عائلية بصورة أكبر وفي الأغلب كانوا يفضلون المنازل كي لا تؤثر مضايقات المعجبين على حميمية الاجتماع.

لم اعتقد يوماً أنه يمكن لنائل أن ينهل معلومات خبيثة عن الأستاذ منهن، وحتى لو كان لم أكن لأساعده، مشهد بغيض أن ينتقد أبناً أبيه مهما كانت علاقتهما معقدة أو غير عادية أو مضطربة.

لم ألمح نظرات غل أو حقد، تعالي أو خيلاء، كأنها سكنت وهدأت بعد شد وجذب أو خضوعاً لقدسية الموت الحدث الجلل الذي توضع كل الصراعات

جانباً حين يطفو على السطح، أو كما قالت لي يوماً "سيتبخر يوماً مثل الماء"، ولقد كان لها ما رنت إليه.

شعرت وكأنها أميرة ملكية في حفل استقبال بمناسبة تنصيب أو احتفال بذكرى وطنية، وليست وفاة شخص تابوته لا يزال حاراً بروحه التي لم تلبث تكمل رحلتها إلى السماء.

حين تقدمت شيرين بصحبة سمير تأنقت في ملابس سهرة ليلية كانت في طريقها إليه ولكنها قررت أن تقوم بواجب العزاء بملابس لا تتماشى مطلقاً مع حدث كهذا، كيف فعلت؟ ولماذا قررت؟، يبدو أنها روحها الشيطانية التي تسكنها منذ افترقنا، لا بل قبل هذا بكثير، روح المغامرة التي ثارت على كل شيء ودمرته، لإنها لم تكن لتتحمل أصفاداً جديدة على رسغها الملتهب.

سمير بدأت عليه ملامح السعادة كشاب في مقتبل العمر يتأنق في ملابس
مهندمة بصحبة زوجة المستقبل، المرأة المشتعلة روحاً وعقلًا المختلفة،
نجمة المستقبل والحب الحقيقي الذي تحدى من أجله الجميع، خدعة لا يزال موهوماً بها لقلة الخبرة.

حين تراهم لا تقل إنها أجواء عزاء، وأنا لست مستنسى من هذه القاعدة، ربما كان شكري الوحيد، ولما لا فهو صاحب الذكريات الأكبر معه والصداقة
الحقيقية التي تخطت عقود، بينما نحن تعرفنا عليه في السنوات الأخيرة،
يمكن أن تقول في أعوام خفوت البريق واختفاء الوهج، ولدينا آيادي ليست بيضاء في نهايته، شئنا أم أبينا.

أما الصورة فإلتقطها نائل حين كنا نجلس لارتشاف القهوة في أحد الغرف داخل المنزل، ومعنا سمير وشيرين، وضع الخادم الفناجيل على الخوان ونظرت ماهيتاب بحنق نحو شيرين نظرة غاضبة متصلبة، واقترح نائل في لمح البصر، التقاط صورة فجأة "لنأخذ سيلفي عزاء المختار"، وأخذها فجأة.

صورة المختار كانت معلقة على الحائط تعلوها شارة سوداء على جانبها الأيمن، ابتسامته تزين الصورة وكأنه يشاطر أصدقاءه في السيلفي وروحه في السماء وجسده تحت الثرى، مشهد يستحق رؤيته الإخراجية وحكاءه الممتع في ليلة صيف في مطعم بالإسكندرية.

في البداية اعترضت على الفكرة التي لا تناسب جو العزاء، لكن يد المخرج الكبير كانت بارعة في التقاط الصورة المناسبة في توقيت سحري، أنا أتحدث وهو يبتسم مع شيرين التي بدت وكأنها في جلسة تصوير في إجازة على الشاطىء، وسمير يبدي دهشة ممزوجة بشيء من الخجل، وماهيتاب تقف متأنقة، حسناء جميلة تتسربل في ملابس الحداد.

فسر لي نائل حين خرجنا إلى شرفة المنزل للاستمتاع بسيجارة سر التقاط صورة كهذه وهو أمر غير مناسب في موقف مثل هذا، خاصة أن زوجته كانت حاضرة، وهي ملاحظة استحقت منه سخرية حانقة.

يبرر نائل - ربما ترى الصورة أو الموقف غريبين، غرابة الصورة كمنت في إنها جمعت كل من اقتربوا من دائرة المختار في أيامه الأخيرة، أتيقن أنك ترى التقاط صورة سيلفي في موقف كهذا أمر بغيض وغير مستحب، بل أتيقن كذلك أنه متقين أني فعلتها عن عمد كي أعبر عن عدم احترامي

للحدث الجلل، لكني حاولت استغلال لحظة وإن كانت حزينة فإنها لا تتكرر كثيراً. في مكان مثل هذا يتحين الكثيرون الفرصة للإعراب عن سخطهم وضيقهم بالمعجبين أو الصحفيين بحجة تواجدهم في عزاء، له طقوس واحترام، وإن صدق بعضهم فإن أكثرهم كاذبون، لو هذه الهالات الموضوعة عليهم ذهبت لالتقطوا هذا السيلفي في أي مكان، أنا فقط لا أحب التمثيل في الحياة، يقنعني فقط خلف الكاميرات لكن أمامها أتفهمه جيداً. ورغم ذلك أؤمن بأن عتابك لي كان به جزء من الصحة والمعقولية.

تفضح الصور الحقائق في أحيان ليست بالقليلة، الألسن والأيدي التي تسرد كذلك لهم مصلحة وتتحكم بهم الأهواء والأغراض والخوف، لكن الصور تفضح لغة الجسد في لحظة ما وموقف ومهما تم نفي ما بتلك الصورة من إيماءات أو إشارات لاحقاً فلن يكذبها القلب.

****